العذبَة

فيودور ديستويفسكي

نُشرت في ترجمة أخرى باسم: (الوديعة)





أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الازبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

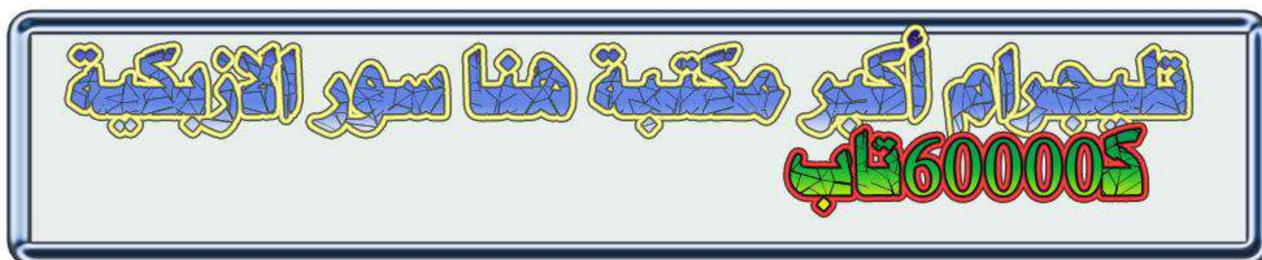
مع تحيات: فريق - متميزون-

العذبَة (الوديعة)

رواية.. (١٨٧٦)..

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: سامي الدروبي



أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

مقدمة المؤلف:

أعتذر إلى قرائي عن أنني لا أقدم إليهم « اليوميات » في صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة، وإنما أقدم إليهم حكاية خيالية. صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطرًا كبيرًا من الشهر، ومع ذلك أستميحهم عذرًا وألتمس منهم العفو والتسامح.

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أنني ربما أعدها واقعية قبل كل شيء. ولكن الخيال قائم فيها حقًّا بحكم أنني أقدمها في صورة قصة. فرأيت أن من المفيد أن أشير إلى هذا منذ البداية.

الواقـع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات. تخيلوا زوجًا ترقد على مائدته جثة امرأته التي إنتحرت منذ بضع ساعات بإلقاء نفسها من النافذة. إنه يعاني إنفعالًا عنيفًا شديدًا، ولمَّا يستطع أن يثوب إلى رشده وأن يسترد صوابه. فهو ينتقل من غرفة إلى غرفة، محاولًا أن يتصور ما حدث، وأن يتخيَّل ما جرى، وأن « يُركِّز أفكاره في نقطة ». ثم إن هذا الرجل سوداوي المزاج في أعماق نفسه، لا ينفك يجتر أفكارًا ثابتة، ولا يفتأ يناجي نفسه في السر، ويكلمها بغير إنقطاع إنه إذنْ يتحدث إلى نفسه، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » جاهدًا. ورغم ما يلوح في قصته من إتصال ظاهري و تسلسل طبيعي، فإنه يرتكب مخالفات منطقية، ويقع في تناقضات عاطفية. إنه يبرىء نفسه ويدينها في آن واحد، كما أنه ينزلق إلى تأويلات خاطئة، وإلى ذلك يضاف شيء من غلظة في الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة. وقد إستطاع شيئًا فشيئًا أن « يفسر الأمر لنفسه »، وتوصَّل إلى « تركيز أفكاره على نقطة »، إذ ساقته سلسلة من الذكريات إلى الحقيقة سوقًا لا سبيل إلى مقاومته: فبثت هذه الحقيقة حماسة وحمية في فكره وقلبه. فإذا لهجته نفسها تتغير في نهاية القصة إذا قيست بما إشتملت عليه البداية من فوضى وبلبلة. لقد إنكشفت الحقيقة واضحةً جليةً لهذا الشقي الباس، إنكشفت له هو على الأقل...

ذلكم هو الموضوع. والقصة تتتابع عدة ساعات، وتتخللها إنقطاعات ووقفات، وتعتارها صدمات: فالرجـل تارةً يتحدث إلى نفسه، وتارةً يُخاطب شخصًا لا يُرى هو بمثابة قاضٍ.

ولو إستطاع مختزلٌ أن يسمع ويسجل كل ما يقوله، لجاءت القصة أشد وعورةً وخشونةً مما أرويه أنا. ولكن الحياة النفسية تبقى فيها على حالها فيما يغلب على ظني. إن هذا الإفتراض الذي إفترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل إلا بعد ذلك) هو ما جعلني أصف هذه القصة بأنها خيالية. على أن هذا الأسلوب لا يظهر في الفن هنا لأول مرة تمامًا: لقد إستعمله فكتور هوجو، مثلًا، في رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه

بالموت ». ولئن لم يعتمد على مختزل، فقد أجاز لنفسه أمرًا أشد إيغالًا في البعد عن الواقع والنأي عن الإحتمال، وذلك حين إفترض أن رجلًا محكومًا عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا في آخر يوم من أيامه فحسب، بل في آخر ساعة، بل في آخر دقيقة. فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة، لما أتيح لهذا الأثر من آثاره أن يوجد، وهو أقرب آثاره إلى الواقع، وأدناها من إحتمال الحدوث.

الفصل الأول

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

1

من كنت ومن كانت

... هي ذي هنا الآن ـ فما زال الأمر حسنًا. إنني أجيء فأنظر إليها في كل لحظة. ولكنها ستُحمل غدًّا، فأبقى وحيدًا، فما عسى أفعل؟ هي الآن في الصالون، مسجَّاة على مائدة صنعت من ضمِّ طاولتين إحداهما إلى الأخرى. ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيضَ بياضًا تامًا، وسيكون كفنها أبيض. على أن الأمر ليس هو هذا... إنني ما أنفك أذهب وأجيء محاولًا أن أفسر المسألة لنفسي: ها قد إنقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسي، فلا أفلح في تركيز شتات أفكاري. الحق أنني لا أزيد على أن أذهب وأجيء، أن أذهب وأجيء... إليكم كيف جرى الأمر... سأسرد لكم الحوادث متسلسلةً منظمة (لا بد من النظام!) آه ٠٠ رباه.. ما أنا بكاتب.. إنكم تلاحظون ذلك.. ولكن لاضير. سأقص الأمر على نحو ما أفهمه. ذلك أن أفظع ما في القضية في نظري هو أننى فهمت كل شيء.

إذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا، أي إذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية، فاعلموا أنها إنما جاءت إليَّ لتقترض مني بعض المال بِرَهنِ بعض الأشياء. كانت تريد أن تدفع أجر إعلان في جريدة « الصـوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمةً، أو للمجيء إلى البيوت تعطي دروسًا، إلخ... إلخ... ذلك في بداية الأمر. فلم أميِّزها عن كثيرات مثلها. كانت تأتى كما يأتي سائر الناس، بل كانت تأتي ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس. وقد لفتت إنتباهي فيما بعد. كانت نحيفة القامة، شقراء، رائعة الطول ([1]). وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي، كما تكون امرأة خائفة. (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها، وطبيعي أنني لم أكن في نظرها إلا رجلًا كسائر الرجال، أي لم أكن في نظرها مرابيًا يُقرض برهون، بل رجلًا كأي رجل آخر). كانت ما إن تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتنصرف، دون أن تقول شيئًا في أية مرة إن بين المقترضـات من يناقشن ويلححن ويساومن للحصول على مبلغ أكبر. أما هذه فلا. لقد كانت تقبل ما تُعطاه. يُخيَّل إليَّ أنني أهذر هذرًا مضطربًا لا يُفهم. الخلاصة... هناك تفاصيل لفتت إنتباهي إليها في أول الأمر: القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب، حليتها الصغيرة التافهة التي لا تساوي قرشًا، وما إلى ذلك. كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوى قروشًا. ولكنني كنت ألاحظ من النظر إلى وجهها أنها تعدها أشياء ثمينة. ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما بقى لهـا من أبيها وأمها، كما عرفت هذا فيما بعد. مرةً واحدة أبحت لنفسي أن أبتسم إستهزاءً بهذه الأشياء والحق أنني في العادة لا أبيح هذا لنفسي أبدًا. إنني أُعامل الزبائن معاملة رجل مهذب، ولا أُعبِّر عما أريد التعبير عنه إلا

بكلمات قليلة، أقولها بلهجة مؤدبة جافة، « جافة، جافة جافة ». غير أنها جاءتني ذات مرة ببقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب - فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسي، فقلتُ لها كلامًا فيه شيء من التندر. فما أسرع ما تخضب وجهها بحمـرة شـديدة! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين، فما أسرع ما إتقدتا فكأن شررًا يخرج منهما! ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها » وخرجت. وعندئذٍ إنما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة »، وفكرت فيها. نعم، فكرت فيها تفكيرًا خاصًا أيضًا. أجل، هذا ما حدث. إنني لا أزال أتذكر الإحساس الذي قام في نفسي، أو قولوا الإحساس الرئيسي الذي هو مركَّب الإحساسات الأخرى: إنها في ميعة الصبا فلا يقدِّر المرء أن تكون سِنُّها أكثر من أربعة عشر عامًا. ومع ذلك كانت سنها ستة عشر عامًا إلا ثلاثة أشهر. على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله، ليس هذا مركَّبَ الإحساسات الذي قام في نفسي. ولقد عادت في الغد. وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت إلى دوبرونرانوف، وإلى موزير، حاملةً معطفها الخلق البالي، ولكن هذين المرابيين لا يقبلان إلا الذهب رهنًا، فلم يحمِّلا نفسهما حتى عناء إجابتها. وكنتُ قبلتُ منها قبل ذلك حجرًا قد يُعدُّ من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له في الواقع)، فلما فكرت فيما فعلت دُهشت من نفسي وتساءلت: كيف قبلت منها ذلك الحجر رهنًا، أنا الذي لا يقبل إلا الذهب والفضة أيضًا؟ تلكم، فيما أذكر، هي الفكرة الثانية التي قامت في ذهني تجاهها.

وفي هذه المرة، أي يوم عودتها من عند موزير، جاءت تحمل إليَّ مشرب سيجارة، من خشب العنبر، وهو شيء قد يحبه هواة، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل إلا ذهبًا! ولما كان مجيئها إليَّ تلك المرة غداة « العصيان »، فقد إستقبلتها إستقبالاً شرسًا. والشراسة عندي هي أن أكون خشنًا. ومع ذلك لم يسعني حين نقدتها روبلين إلا أن أقول هذه العبارة بشيء من الحنق والغيظ: « إنما فعلت هذا إكرامًا لك.. ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه ». وقد خاطبتها في هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزًا ذلك إبرازًا خاصًا، قاصدًا منه إلى غرض معين « أنتويه ». كنت شريرًا. فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة! أدركتُ أنني آلمتها. فقلت لنفسي حين خرجت: « هل كان يجوز أن أذلَّها من أجل روبلين؟ ». ولم ألبث أن أجبت عن سؤالي بأنني أحسنت صنعًا، فأخذت أضحك، وأفرحني الأمر كثيرًا في ذلك الحين. ولكن ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة مني: فقد كنت أخفي في رأسي نيةً. ذلكم كان موقفي الثالث منها.

... ومنذ تلك اللحظة إنما بدأ الأمر.. طبيعي أنني سرعان ما جهدت أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة. وأخذت أنتظر مجيئها نافد الصبر. فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه مني. إنني لا تعوزني الثقافه، ولا أجهل آداب السلوك الراقي. لاحظت عندئذٍ أنها طيبة، متواضعة، عـذبة. ومن كان طيبًا عذبًا لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة، وإذا كان لا يستسلم بسهولة، فإنه لا يعرف كيف يتهرب

من المحادثة أو يتملص منها. صحيح أنه يجيب بكلمات مفردة، ولكنه يجيب، وكلما إزددتُ عليه إلحاحًا، إزداد لك إذعانًا. وعليك أنت إنما يقع عبء منعه من الإفلات إذا أنت أحببت ذلك. على أنها لم تشرح لي شيئًا حينذاك. ومن قراءة جريدة « الصوت » إنما عرفت بعد ذلك كل شيء. إن الإعلانات الأخيرة تدل على أن مواردها نضبت نضـوبًا تامًا. كانت الإعلانات الأولى أكثر طلاقة. كانت تقول مثلًا: « معلمة، مستعدة للسفر، لتقديم عروض »؛ ثم صارت تقول بعد برهة: « تعمل كل شيء، تُعلِّم، تصحب الأولاد، تراقب أعمال المنزل، تعنى بمريض، تحسن الخياطة، إلى آخر ما هنالك مما هو معروف جدًّا. ولقد نشرت هذه الإعلانات مرارًا إلى أن ساءت حالها كثيرًا، فكان الإعلان الأخير يقول: « لا تطلب راتبًا، تكتفي بطعامها أجرًا ». ومع ذلك لم تعثر على عمل! قررت أن أمتحنها مرةً أخيرة. فأخذت عدد اليوم من جريدة « الصوت »، وأريتها إعلانًا جاء فيه: « فتاة يتيمة، تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار، تفضل العمل عند أرملة مسنة قليلًا ً. وتعنى بأعمال المنزل ». وقلت لها:
- أنظري. هذه نشرت الإعلان في هذا الصباح وقد تجد عملًا في المساء. في هذه الصورة إنما يجب على المرء أن يقدم نفسه.
فتخضب وجهها بالحمرة من جديد، واشتعلت عيناها، واستدارت، وخرجت فورًا. سرني ذلك كثيرًا. وكان رأيي في تلك اللحظة قد إستقر وترسخ على كل حال، وكنت مطمئنًا هادىء البال غير خائف: لا أحد سيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة »، حتى أن « مشرب السيجارة » نفسـه لم يبق لها. ولم يخطىء ظني. فها هي ذي تأتي غداة غد وقد لاح في وجهها شقاء كبير، واضطراب شديد. فقدَّرت أن شيئًا ما قد حدث لها في البيت. ولم يخطىء تقديري. سأحكي لكم بعد قليل ما حدث. أما الآن فإن همي منصرف إلى تجميع ذكرياتي. لقد بلغت في معاملتها غاية اللطف والكياسة، فسرعان ما كبرت في نظرها. تلكم هي الخطة التي رسمتها. وكان ذلك بسبب الأيقونة. (لقد عزمت أمرها أخيرًا على أن تجيء بها لترهنها).. آه.. إسمعوا! إسمعوا! الآن يبدأ الأمر. أما قبل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك إرتباكًا شديدًا. الآن أريد أن أتذكر كل شيء، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدقَّ الجزيئات. إنني أحاول أن أجمع شتات أفكاري في نقطة، ثم... ثم لا أفلح في ذلك ولا أظفر بطائل. هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة! آه... إنها أمور دقيقة جدًّا، يسيرة جدًّا...
كانت الأيقونة صورة للعذراء، العذراء مع إبنها يسـوع. هي أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب. لاحظت أن هذه الأيقونة عزيزة على نفسها. وهي مع ذلك تجيء بالأيقونة لترهنها كاملةً دون أن تنزع عنها المعدن الذي يغطيها. قلت لها: « الأفضل أن تنزعي المعدن، وأن تأخذي الأيقونة. إن الأيقونة شيء لطيف سريع العطب ».
قالت:

ـ هل يحظر عليك أن تفعل هذا؟
ـ لا، ليس الأمر أمر حظر. ولكن لعلكِ تدركين أنتِ نفسكِ أن...
- فانزع إذنْ...
قلت بعد تفكير:
- لا. إعلمي أنني لن أنزع المعدن. بل أضع الأيقونة كلها هناك، في المشكاة، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت في كل صباح أشعل أحسن سراج عندي منذ أن أفتح المكتب)، وخذي هذه العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة.
ـ لست في حاجة إلى عشرة روبلات. أعطني خمسة. وسوف أسترد الأيقونة حتمًا.
أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شررًا من جديد:
ـ لا تريدين العشرة روبلات؟ إن الأيقونة تساوى هذا المبلغ.
فلزمتُ الصمت. ومددتُ إليها خمسة روبلات. وقلت:
ـ لا تحتقري أحدًا. أنا أيضًا كنت في عسر وضيق، بل كنت أسوأ حالًا. واذا رأيتني أزاول الآن هذه المهنة، فذلك لكثرة ما عانيت في حياتي من ألم وعذاب...
فقاطعتني تقول وهي تبتسم إبتسامةً ساخرة:
ـ فأنت تثأر لنفسك إذنْ من المجتمع، أليس كذلك؟
كانت إبتسامتها ساخرة، ولكن هذه الإبتسامة كانت تشتمل في الحق على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية، وهي لا تزيد على أن تُشَبهني بسائر زملائي، فلا يكاد يكون في كلامها شيء يسوؤني أو يجرح شعوري أو يهين كرامتي. ولكنني قلت محدثًا نفسي: « ها... ها أنتِ ذي أنتِ! لقد إنكشف طبعكِ إنكشافًا جديدًا! ».
وقلتُ لها فجأةً، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تعمية وسر:
ـ أنا جزء من ذلك الجزء من الكل، الذي يريد أن يصنع شرًا فيصنع خيرًا!
فما إن سمعت هذا الكلام حتى نظرت إليَّ مستطلعة مدهوشة، بكثير من روح الطفولة مع ذلك، وقالت تسألني:
- إسمع... ما هذه الفكرة؟ من أين أخذتها؟ يُخيَّل إليَّ أنني سمعتها قبل الآن في مكان ما...
ـ لا تجهدي نفسـك في التذكر. بهذه الكلمات إنما زكى مفستوفيليس نفسه لفاوست. هل قرأت قصة « فاوست »؟
- لم أقرأها... بانتباه كبير.
ـ أي أنكِ لم تقرئيها البتة. يجب الإعتراف بهذا. ثم إنني مازلت ألمح في طرفي شفتيك تلك البسمة الساخرة. فأرجوكِ ألا تحكمي عليَّ بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أقدِّم إليكِ نفسي في صورة مفستوفيليس. إن مرابيًّا يقرضِ برهن، يظـل مِرابيًّا يقرِض برهن. ذلك أمر نعرفه.

ـ ما أغرب أمرك... إنني ما أردت أن أقول لك هذا البتة...
كانت تريد أن تقول: ما كنت أتوقع أن أجدك رجلًا مثقفًا، ثم لم تقله، ولكن هذا لم يمنعني من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله. وسررت منها أعظم السرور. وقلت:
- في جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيرًا. لا أقول هذا لأمدح نفسي. فمن الواضح أنني لا أصنع شيئًا من خير، وربما كنت أصنع شرًا... ومع ذلك...
قالت وهي ترمقني بنظرة سريعة عميقة:
- لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيرًا في أي ظرف ومن أي موقع.
ثم أسرعت تردف قولها:
- هذا كلام حق: في أي ظرف ومن أي موقع.
آه... إنني أتذكر كل تلك اللحظات، أتذكر كل تلك اللحظات!. ويهمني أن أضيف إلى ذلك أن هذا الشباب، هذا الشباب الغالي، اذا أراد أن يقول شيئًا فيه ذكاء وفيه إقتناع، لا يعوزه أن يتخذ على الفور هيئة صريحة جدًّا، ساذجة جدًّا، وأن تقول لك قسمات وجهه: « أنظر إلى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا! »، وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل أقراننا، فإن المرء يلاحظ أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشد التعلق، وأنه يحبه أكبر الحب، وأنه يؤمن به أعظم الإيمان، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه كما يحترمه. يا لها من صراحة! وبذلك إنما يحقق النصر. ما كان أجمل هذا كله فيها!
إنني أتذكر تذكرًا واضحًا. لم أنس أي شيء! وحين خرجت كنت قد عزمت أمري واتخذت قراري. ففي ذلك اليوم نفسه مضيت أتقصى أخبارها، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتى ذلك الوقت، وعرفت خفايا قصتها الراهنة. كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك من لوكيريا التي كانت خادمةً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام. إنها خفايا تبلغ من الهول أنني لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما ضحكت أمس، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس، بينما هي تحيا فريسة أهوال رهيبة. ولكنه سن الشباب أيضًا! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهوًا فرحًا، لأنني رأيت في ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها. حتى على حافة الهاوية، تتألق كلمة الشساعر جوته! إن الشباب سمح كريم دائمًا، حتى في أخطائه. والحق أنني أقصدها هي، أقصدها وحدها. والعجيب في الأمر أنني كنت أكلم نفسي عنها منذ ذلك الوقت وكأنها صارت « لي »، وأنني أصبحت لا يراودني شك في قدرتي وسلطاني. إنكم تعرفون مدى المتعة التي يذوقها المرء حين لا يشك.
ولكن ما هذا الذي أفعله؟ إذا سرت هذا السير، فمتى أجمع شتات أفكاري؟ ألا فلأسرع، فلأسرع. ليس هذا هو الأمر!
∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

2

طلب الزواج

الخفايا التي عرفتها عنها سأوجزها في كلمات قليلة: لقد مات أبواها منذ مدة طويلة ـ منذ ثلاث سنين ـ فبقيت وحيدةً عند عمتين لها شريرتين، بل إن وصفهما بأنهما « شريرتان »، لا يفيهما حقهما من الذم. إن إحدى هاتين العمتين أرملة مثقلة بأسرة فلها ستة أولاد؛ والثانية ـ وهي أقصر من الأولى قليلًا ـ عانس شرسة الطبع مشاكسة. هما امرأتان سيئتان خبيثتان كلتاهما. ولقد كان أبو الفتاة موظفًا. كان كاتبًا في دائرة من دوائر الدولة، لا مورد إلا راتبه. إن مستواي أنا أعلى من مستواه على كل حال: فأنا كابتن متقاعد، خدمت في فوج مرموق من أفواج الجيش، وأنتمي إلى أسرة نبيلة المحتد، وأعيش حياة ليس فيهـا عوز. أما أني أقرض بالربا، فإن العمتين لن تعدما أن تنظرا إلى هذا الأمر نظرة إستحسان واعجاب. عاشت الفتاة خلال ثلاث سنين عبدةً لعمتيها، ومع ذلك نجحت في إمتحاناتها بفضل ما بذلت من جهد في الدراسة رغم ضيق الوقت. نجحت في إمتحاناتها، رغم قيامها بأعمال يومية قاسية قسوةً لا ترحم، وهذا يدل على أنها تتصف بسمو عقلي وتفوق روحي لا سبيل إلى الشك فيهما. ولماذا رغبت أنا في أن أتزوج؟ دعونا مما حدث لي أنا. سوف نرى ذلك فيما بعد... ولكن الأمر هو هذا. كانت الفتاة تعلم أولاد عمتها القراءة، وكانت ترقِّع الملابس، وصارت في المدة الأخيرة لا تغسل الغسيل فحسب، بل تغسل أرض الغرف أيضًا، رغم ضعف صدرها. وشيئًا فشيئًا أخذت العجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب أية لقمة تأكلها. ثم قررتا أن تبيعاها. آه... لن أدخل في تفاصيل هذا الحمأ. وهي لم تقصص عليَّ كل شيء تفصيلًا إلا فيما بعد. لقد كان رجل سمين بقَّال ينظر إليها ويطمع فيها منذ سنة. وكان قد « قبر » امرأتين حتى ذلك الحين، فهو يبحث الآن عن ثالثة. لذلك وضعها نصب عينيه، واتخذها هدفًا يريد الوصول إليه. كان يقول لنفسه: « إنها مناسبة مريحة، فقد ولدت فقيرة؛ وإذا كنت أريد أن أتزوج، فذلك من أجل الأولاد ». ذلك أنه كان له أولاد. وأخذ يستعجل الأمر. فباحث العمتين. وكان في نحو الخمسين من العمر. وكرهته الفتاة و نفرت منه نفورًا رهيبًا. فأخذت تنشر إعلانات في جريدة « الصوت ». ثم إبتهلت إلى عمتيها أن تمهلاها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر. فأمهلتاها مدة قصيرة، مدةً قصيرةً لا يجوز أن تطول. كانتا تقولان: « نحن نفسنا لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل، فلسنا نطيق أن يشاركنا لقمتنا فمٌ آخر »، جاء البقال إلى دار العجوزين حاملًا رطل حلوى ثمنه خمسون كوبكًا. وكانت الفتاة معه. ناديت لوكيريا من المطبخ، ورجوتها أن تذهب إلى الفتاة فتهمس في أذنها أنني أنتظرها أمام

الباب لأبلغها أمرًا مستعجلًا جدًّا. كنت راضيًّا عن نفسي كل الرضى مسرورًا بها كل السرور. وكنت مسرورًا طوال النهار على كل حال.
وهناك، عند الباب، بحضور لوكيريا، بينما كانت مدهوشةً من أنني إستدعيتها، ذكرت لها ما كنت أعده سعادةً وشرفًا... ولا بد أنها لم تدهش عندئذٍ من الطريقة التي عمدت إليها، ولا من قولي لها: « إنني رجل مستقيم، وقد فكرت في جميع ظروف القضية، وقلَّبت الأمر على كل وجوهه ». والحق أنني لم أكذب حين وصفت لها نفسي بأنني رجل مستقيم. ولكن لا قيمة لهذا. وإنما يجب أن أذكر أن كلامي في مخاطبتها لم يكن مهذبًا فحسب، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب، وإنما كان يشتمل على أصالة أيضًا. وهذا هو الأمر الأساسي. أهي جريمة أن أعترف؟ إنني حريص على أن أحكم على نفسي، وإني لأحكم عليها. فعليَّ إذنْ أن أقول ما لي وما عليَّ. وهذا ما فعلته. ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد، فتلذذت كثيرًا، رغم أنه غباء. كاشفتها صراحةً حينذاك، دون أن تحرج، بأنني أولًا لستُ صاحب مواهب، وأنني امرؤ أناني سيء (أتذكر هذا اللفظ، فلقد أعددته وأنا في طريقي إلى بيتها ورضيتُ عنه)، وإن لي في أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة. قلت ذلك كله بنوع من الزهو. ولعلكم تتصورون اللهجة التي قلته بها. لكنني بعد أن ذكرتُ سيئاتي بصدق ونبل، لم أغفل طبعًا عن الإنتقال إلى تعداد حسناتي، فقلتُ لها: « إنني أمتاز بكيت وكيت وكيت... ». رأيت أنها مرتاعة
جدًّا. ولكنني لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئًا. بالعكس: فإنني حين رأيت خوفها أخذت أقوِّي النغمة عامدًا. قلت لها بغير تحرج أنني لن أبخل عليها بالطعام، فستأكل عندي ما تشتهي، أما الفساتين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص، فلا شيء منها البتة، الآن على الأقل، وإنما قد أسمح بها في المستقبل، حين أكون قد بلغت هدفي. كانت هذه اللهجة القاسية تفتنني فتنة كبيرة. وأضفت أقول بغير إلحاح كثير أنني إذا كنت قد إخترتُ هذه المهنة، إذا كنت قد فتحت هذا المكتب، فإن ذلك يرجع إلى ظرف معين. والحق أنني كان من حقى جدًّا أن أقول هذا الكلام: فالهدف الذي أشرت إليه قائم في ذهني، والظرف الذي ذكرته قد وقع فصلًا. إسمعوا يا سادتي: ثقوا أنني كنت طوال حياتي أبغض صندوق الإقراض بالربا أكثر مما يبغضه سائر الناس. لكنني وإن يكن مضحكًا وسخيفًا أن يستعمل المرء تعابير معمَّاة أؤكد لكم أنني « أثأر لنفسي من المجتمع ». هذا صحيح هذا هو الحق. وبذلك يكون تندرها عليَّ في ذلك الصباح يعوزه الإنصاف. حتى أنها كانت ستنفجر ضاحكةً كما ضحكت في المرة الأولى لو عبَّرت عما يعتمل في نفسي بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها: « نعم إنني أنتقم لنفسي من المجتع ». ولكن بدا لي فجأةً أنني أستطيع أن أكسب خيالها إذا أنا أشرت إشارة متخفية، وقلت جملة سرية معمَّاة. ثم إنني كنت قد أصبحت في تلك اللحظـة غير خائف من شيء: كنت أعلم أن البقال الضخم ينفِّرُها أكثر مما أُنفِّرها أنا على كل حالٍ، وأن وجودي على بابها مادام

الأمر كذلك أشبه بوجود منقذ أو محرِّر. كنت أدرك ذلك إدراكًا تامًا. آه... إن الرجل يدرك كل ما هو خسة ودناءة أكثر من إدراكه أي شيء آخر. ولكن هل كان ذلك خسة ودناءة؟ كيف يجرؤ المرء أن يحكم على إنسان؟
ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين؟
إنتظروا يا سادة، إنني لم أشر بطبيعة الحال أية إشارة إلى أننب أُحسن إليها. إنني لم أمنَّ عليها. أبدًا. بالعكس، بالعكس: قلت لها: « أنا الذي سأكون مدينًا لكِ بالشكر لا أنتِ. وأنتِ التي تطوقين عنقب بجميلك لا أنا ». بل لقد قلت لها هذا كلمةً كلمة. لم أستطع أن أمسك عن قوله. ولعل ذلك كان مني حماقة، لأن شيئًا من الإنقباض قد ألمَّ عندئذٍ بوجهها. ولكنني حققت ظفرًا حاسمًا وانتصـارًا قاطعًا على كل حال.
إنتظروا. ما دمت قد حرَّكتُ هذا الحمأ كله، فاسمحوا لي أن أذكر لكم آخر حقارة صدرت عني. فحينما كنت واقفًا هناك على العتبة، كنت أجتر هذا الكلام محدثًا نفسي: « إنك فارع الطول مونق القامة، مثقف؟ ثم إنك لست دميم الوجه على كل حال، وليس في هذا أي إدعاء أو تبجح أو مباهاة ». ذلك ما كان يدور في رأسي ويجول في خاطري. ولقد وافقت على طلبي في ذلك الوقت عنـد البـاب فقالت: « نعم ». وافقت طبعًا. ولكن... يجب أن أضيف هذه الحقيقة: أنها فكرت طويلًا ومليًا، هناك عند الباب، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك. حتى لقد بلغت من طول التفكير أننى أخذت أتساءل: « فماذا؟ » لم أستطع أن أمسك عن إلقاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة.
وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجد أنني كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه! ولكنني شعرت مع ذلك بخيبة الأمل. قلتُ أحدث نفسي: « هل يمكن أن تتردد في التخيير بيني وبين صاحب الدكان؟ » آه.. عندئذٍ لم أفهم. لم أفهم شيئًا البتة. وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئًا. أتذكر أن لوكيريا ركضت ورائي حين إنصرفت، واستوقفتني في الطريق وقالت لي: « جزاك اللّه خيرًا يا سيدي على أنك أخذت آنستنا الطيبة. ولكن لا تجرح شعورها فإنها ذات شمَّم وكبرياء ».
ذات شمَّمٍ وكبرياء؟ إنني أحب أولئك اللواتي يتصفن بالشمَّمِ والكبرياء. إن اللواتي يتصفن بالشمَّم والكبرياء يكُنَّ طيبات عامةً حين.. نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان. أهذا حق؟ أوه! يا للرجل ما أكبر دناءته، وما أشد خراقته! هل كنت راضيًّا رضا كافيًّا؟ هل كنت مغتبطًا إغتباطًا كافيًّا؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلًا و مليًّا لتقول لي « نعم »، وكنت أنا مدهوشًا من ذلك، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذٍ هو ما يلي: « شقاء فوق شقاء، أفلا يحسنُ أن أختار الرجل الأسوأ، أي صاحب الدكان، فعسى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لي الضربات تلو الضربات إلى أن أموت؟ ». آه.. ما رأيكم؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هي التي دارت في خلدها حينذاك؟

نعم، وإنني إلى هذا اليوم لا أفهم، لا أفهم من الأمر شيئًا. قلت منذ لحظة أن من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة: أن تختـار الأسوأ، أي أن تختار البقال ولكن أين كان في نظرها هو الأسوأ، أنا أم البقَّال؟ البقَّال أم المرابي الذي يستطيع أن يستشهد بالشاعر جوته؟ ذلكم سؤال آخر. أي سؤال؟ هيه، ماذا؟ أما زلت لا تفهم؟ إنك لتتكلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك! ولست أهتم بأمري أنا كل حال. ولكن ماذا حقًّا؟ هل إهتمامي منصرف إلى نفسي أم هو منصرف إلى آخر؟ ذلكم ما يستحيل عليَّ أن أقطع فيه برأي جازم. إن الأفضل أن أضطجع وأنام. إنني أحس بصداع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3

أنبل الرجال وهو نفسه لا يصدق من الأمر شيئًا

لم أستطع أن أنام. وأين لي أن أنام! كنتُ أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتي ضربًا. أود لو أستطيع أن أتعود هذا كله، أن آلف هذا الوحل كله. آه... الوحل! يا للوحل الذي أخرجتُها منه! كان ينبغي لها أن تفهم ذلك، وأن تعرف كيف تقدر عملي حق قدره! و كان يحلو لي أن أسترسل في بعض الأفكار، منها هذه الفكرة مثلًا: إن سني واحـد وثلاثون عامًا، ولا تتجـاوز سنُّها هي ستَّ عشرة سنة. ما كان أعظم إفتتاني بذلك! إن هذا الإحساس بعدم التوازن والتكافؤ شيء لذيذ، لذيذٌ جدًّا.
وقد تمنيتُ مثلًا أن نحتفل بزفافنا « على الطريقة الإنجليزية »، أي ألا يكون في حفلة القران إلا نحن والشاهدان اللذان لا بد منهما، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما. ثم نركب القطار فورًا، فنسافر ولو إلى موسكو (وكان لي بموسكو عمل يجب أن أنجزه)، وننزل بأحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعًا أو أسبوعين ولكنها إعترضت على هذه الفكرة، ورفضتها، واضطررت أن أذهب إلى العمتين أحييهما وأعبر لهما عن إحترامي بحجة أنهما الأسرة التي أخذت الفتاة من بين أحضانها. أذعنتُ لمشيئتها، وأدَّيتُ للعمتين واجب الإجلال والتبجيل. حتى لقد وهبت لهاتين المخلوقتين مائة روبل، وأضفت إلى ذلك وعودًا بذلتها لهما. وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعًا، حتى لا يتأذى شعورها من هوان بيئتها. وسرعان ما أبدت العمتان كثيرًا من المودة والملاطفة. ونشب خلاف على جهاز العرس: لم يكن عندها ثياب، ولكنها رفضت أن تشتري ثيابًا. ثم أفلحتُ في أن أُفهمها أنها لا يمكن أن تكتفي بالثياب البالية التي عندها، وقلت لها إنني أنا الذي أتولى أمر جهازها، والا فمن عسى يتولاه غيري! على أن الشيء المهم هو أمري أنا! لقد أسرعت أفضي إليها بأفكار شتى كانت قد دارت في خاطري، على الأقل لتنظر إليها بعين الإعتبار بعض النظر، ولعلني نجحت في هذا وبلغت ما أردت. بل أكثر من ذلك أنها في البداية، رغم مقاومتها، أصبحت تقبل عليَّ إقبالًا فيه حب، وتستقبلني حين عودتي في المساء إستقبالًا زاخرًا بالحماسة، وتأخـذ تهذر هذرها البريء، فتقص عليّ حكاية طفولتها كاملة، وسنوات صباها التي قضتها في دار أبيها، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها. لكنني كنت أعرف كيف أصب ماءً باردًا على هذه النشوة وهذا السكر. وتلك كانت فكرتي. كنت أرد على حماستها بصمت، بصمت متسامح طبعًا.. فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض، وما أسرع ما نظرت إليَّ نظرتها إلى لغز مستغلق. وعلى هذه الألغاز إنما كنت أبني أنا

حساباتي وأعقد آمالي! بل لعلني من أجل أن تحلّ هي هذا اللغز المستغلق إنما إندفعتُ إلى فعل ما هو سخف واستحالة. عمدت في أول الأمر إلى القسوة. أدخلت القسوة الى بيتي نظامًا ثابتًا. وتمَّ هذا من تلقاء نفسه بدون أي جهد. لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل. ولقد تخيلت هذا النظام في ظرف مستقل عن إرادتي، فلا يد لي فيه. دعونا! لماذا أقدح في نفسي؟ لقد كان ثمة نظام حقًّا. ولكن إسمعوني: مادام الأمر أمر حكم على إنسان، فيجب ألا يتم الحكم عليه إلا مبنيًا على معرفة كاملة بالأمر... إصغوا إليَّ.
من أين أبدأ؟ ذلك أن البدء صعب جدًّا متى أراد المرء أن يُبرِىء نفسه، إصطدم بعقبات ولقى صعابًا. إليكم هذا المثال: إن الشباب يحتقر المال. فسرعان ما ألححت على المال، وجعلت كل شيء رهنًا به، مبنيًا عليه. وبلغت من شدة الإلحاح أنها غدت تصمت مزيدًا من الصمت شيئًا بعد شيء. كانت تحملق وتصغي وتنظر وتسكت. وهذا مثال آخر: إن الشباب يحب المروءة والنخوة، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة، كانت متقدة الحماسة شديدة الحمية، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر، فما إن تعارضها حتى يستبد بها شعور الإحتقار. وكنت أنا أحب رحابة الصدر وسعة الفكر، وكنت أحب أن أعلِّمها هذه الرحابة وهذه السعة، أليس هذا حقًّا؟ سأختار لكم مثالًا مبتذلًا: ما عساني أفعل من أجل أن أشرح لطبع كطبعها مسألة الإقراض بالربا على رهن؟ لم أواجه المسألة رأسًا بطبيعة الحال، وإلا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل، وإنما أنا عمدت إلى الزهو، فتكلمت بما يشبه الصمت. إنني أستاذ بارع في فن الكلام بغير كلام، فن الكلام بالصمت. كنت طول حياتى أتكلم صامتًا، وعشت في داخل نفسي كل مأساة صمتي آه... ما كان أشقاني! إنفضَّ عني الجميع، إنفضوا عني وهجروني، دون أن يعلم بذلك أحد في يوم من الأيام. وها هي ذي الصبية التي تبلغ من العمر ستة عشر عامًا تتخيل فجأةً، بعد أن سمعت عني كلامًا من أشخاص ليسوا شرفاء، ها هي ذي تتخيل أنها تعرف كل شيء، أنها على علم بكل شيء، في حين أن سرِّي ظلَّ محبوسًا في قرارة نفسي، نفس الرجل! وظللت صامتًا، صامتًا معها خاصةً، إلى أن كان الأمس. فإذا سألتموني لماذا صمت، قلت لأنني متكبر صلف. لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها، دون أن أقوله أنا لها، ولكن دون أن تعتمد أيضًا على نمائم دنيئة ووشايات خسيسة، أردت أن تحزر من أنا، وما أنا، وأن تدرك ذلك حق إدراكه. حين إستقبلتُها في بيتي أردت أن أحظى باعتبارها كاملًا. أردت أن تقف مني موقف الضارع المبتهل بسبب ما قاسيتُ من آلام، وكنت أستحق منها هذا الموقف فعلًا. آه... لقد كنت شديد الكبرياء دائمًا، فإما أن أنال كل شيء وإما ألا أنال شيئًا. ولأنني كرهت دائمًا أنصاف الحلول في أمور السعادة، ولأنني أردت دائمًا أن أبدو صلب العود قوي الإرادة، إنما إضطررتُ في ذلك الأوان أن أعمد إلى تلك الطريقة: « عليكِ أنتِ أن تحزري وأن تقدري! ». ذلك أنني - ويجب أن نُسلِّم بهذا - لو أخذت

أشرح لها الأمر وأقص عليها الحكاية، وأخذت أتحايل وألتمس منها الإحترام، لكنت كمن يسألها صدقة.. ولكن.. ولكن.. ما لى ولهذا الكلام كله؟

هذا سخف! سخف وألف سخف! المهم أنني شرحت لها فجأةً، بكلمتين، من غير رحمة، نعم من غير رحمة، (يجب أن أُلحَّ على ذكر، هذا الخلو من الرحمة) إن المروءة عند الشباب شيء خليق بالإعجاب، ولكنه لا يساوي قرشًا صغيرًا. لماذا؟ لأن إكتساب المروءة سهل أشد السهولة، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش، لأن هذه الأمور هي « أولى إنطباعات الحياة، إن صح التعبير. وإنما ينبغي أن ننظر إلى الإنسان وهو يضطرب في جنبات الحياة ويعمل. إن هذه المروءة لا تكلف كثيرًا وهي إن كلفت المرء شيئًا فإنما تكلفه أن يهب حياته، وهو لا يحتاج من أجل هذا إلا إلى شيء من فرط حرارة الدم وفيض القوة، وهو ظامىء إلى الجمال أشد الظمأ دائمًا! لا، ما هذه هي الشجاعة. حاول أن تختار لنفسك مأثرة صعبة، مأثرة لا تحدث جلبة كثيرة، ولا يكون لها بريق وتألق؛ مأثرة ترافقها النميمة والشتيمة، وتتطلب تضحية كبيرة، ولا تؤدى إلى أي مجد؛ مأثرة تظهر فيها - أنت الرجل اللامع - بمظهر الجبان الحقير في نظر جميع الناس، مع أنك أشجع أهل الأرض طرًا، حاول أن تحقق هذه المأثرة فترى ألا تعدل عنها وتنكص على عقبيك؟ أما أنا فإنني لم أزد طوال حياتي على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال.

كانت في أول الأمر تناقش، بل تناقش كثيرًا! ثم قررت أن تصمت، وأن تصمت صمتًا تامًا. أصبحت تكتفي بأن تحملق حين تسمع كلامي، تحملق حملقة شديدة وهي تنصت إلى أقوالي إنصاتًا فيه إنتباه رهيب... و... مع ذلك، لمحت في وجهها، على حين فجأة، إبتسامة تنم عن أنها لا تصدق، إبتسامة صامتة، ساخرة. وكانت تبتسم هذه الإبتسامة حين أدخلتها بيتي.

صحيح أنها لم يكن لها أي مكان تذهب إليه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4

خطط وخطط أخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك؟

لا أحد. لا أنا ولا هي. لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى. قلت قبل الآن أنني أدخلتها بيتي على نية القسوة. ومع ذلك لم ألبث أن رققت. كنتُ قد شرحت لها حين كنا خطيبين لا أكثر، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقي الأشياء المرهونة وأن تؤدي مبالغ الإقراض، ولم تعترض في ذلك الحين (لاحظوا هذا). وأكثر من ذلك أنها أكبَّت على العمل بهمة ونشاط. يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقى كما كان في الماضي. هو بيت يتألف من حجرتين: إحداهما صالة كبيرة جُعلت هي المكتب؛ والثانية صالة واسعة هي الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة. وكان أثاث بيتي ليس فيه شيء من بريق، حتى أن أثاث مسكن العمتين كان أحسن منه. وفي صالة المكتب إنما توجد الأيقونات مع السراج، أي في الصالة التي فيها صندوق الإقراض. وفي غرفة النوم توجد خزانتي، وهي تضم عددًا من الكتب، وحقيبةً كنت أحمل مفاتيحها دائمًا؟ ويوجد سرير وموائد وكراس. وكنت قد أبلغت خطيبتي أننا سنقف على طعامنـا، أي على طعامي وطعامها وطعام لوكيريا التي إستخدمتها، روبلًا واحدًا في اليوم، لا أكثر من ذلك. فلم تعترض بشيء. ولكنني زدت المبلغ من تلقاء نفسى ثلاثين كوبكًا للإنفاق على حاجات البيت. وكان هناك المسرح أيضًا. وكنت قد قلت لخطيبتي أننا لن نذهب إلى المسرح أبدًا. لكنني مع ذلك سمحت بأن نذهب إلى المسرح مرة كل شهر، وتم ذلك على نحو لائق، فكنا نحجز مقاعد في مكان حسن من الصالة. وكنا نذهب إلى المسرح معًا. ذهبنا ثلاث مرات، فشاهدنا مسرحية « سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المغردة » فيما أظن. (ولكن ما قيمة هذا؟ لست أهتم بهذا الأمر أي إهتمام!). كنا نذهب إلى المسرح صامتين، ونعود منه صامتين. لماذا؟ لماذا إلتزمنا جانب الصمت منذ أول يوم؟ على أننا لم ينشب بيننا أي شجار في البداية.

لم نتشاجر في الآونة الأولى، ومع ذلك خيَّم بيننا الصمت. وإني لأذكر كيف كانت تختلس النظر إليَّ من تحت، فلما لاحظت ذلك إشتد صمتي حقًّا إنني أنا الذي ألححت على الصمت. لقد إنفجرت هي مرة أو مرتين، فاندفعت إليَّ تريد أن تعانقني وتقبِّلني، ولكنني إستقبلتُ إندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسترية، ولأنني كنت في حاجة إلى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها إحترام من جانبها وتبجيل. نعم، وكنت على حق. وكان يعقب الإنفجار يوم مليء بالشجار.

أقصد... لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر، وإنما كنا نصمت، وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفًا فيه وقاحة ما تنفك تزداد. « تمرد وعصيان »، ذلك

ما كان يحدث. ولكنها لم تكن تحسن التصرف في الأمر والإحتيال عليه. نعم، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة تزداد تجهمًا وشراسةً شيئًا بعد شيء حتى لقد أصبحت تنفر مني وتكرهني. هل تصدقون؟ لقد أُتيح لي أن ألاحظ هذا. وكانت تلك النوبات تُخرجها عن طورها، لا شك في ذلك. ولكن حين تخرج فتاة من وحل كالوحل الذي كانت فيه، وحين تتخلص من بؤس كالذي كانت تعانيه إذ كانت تغسل بلاط الأرض، فهل يجوز لها أن تتشكى من فقرنا؟ ولاحظوا أن الأمر لم يكن فقرًا بل كان إقتصادًا، حتى لقد كنا لا نضنُّ على نفسنا بشيء من الترف إذا وجب الترف: مثال ذلك أنني كنت حريصًا على نظافة الملابس الداخلية. وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائمًا أن نظافة الرجل ترضي المرأة. على أنها لم تكن تغضب من الفقر في الواقع، وإنما كانت تغضب من هذا الذي تراه فيَّ من الحرص على التوفير والإقتصاد في أعقاب الشموع مثلًا. وكانت تقول لنفسها: لا بد أن لهذا أسبابه وعلله. إنه رجل سيء الطبع وامتنعت فجأة عن الذهاب إلى المسرح. وازدادت شدة اللذع في إبتسامتها الساخرة... وضاعفتُ الصمت من جهتي.

ألَّا يجب عليَّ أن أبرىء نفسي؟ إن صندوق الإقراض ذاك هو الذي كان أخطر ما في الأمر. إسمحوا لي: لقد كنت أعلم أن المرأة، ولا سيما إذا كانت سنُّها ستة عشر عامًا، لا تملك إلا أن تطيع زوجها. إن النساء ليس لهن شخصية. تلك بديهية. ومازلتُ إلى اليوم وحتى في هذه اللحظة أعدها بديهية!

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة. إن الحقيقة هي الحقيقة، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يكون له في الأمر حيلة! فالمرأة التي تحب، نعم، المرأة التي تحب، تعشق فيمن تحبه حتى عيوبه وسيئاته. وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامح من جانبها في حق نقائصه. ذلك منها كرم وسماحة. ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية. إن إفتقاد الشخصية هو ما ضيَّع النساء. أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة، أعنى الجثة المسجَّاة على المائدة. هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية؟ لا، دعوكم من هذا الكلام!

إسمعوا. لقد كنت واثقًا بحبها حينذاك. ألم تكن ترتمي عليَّ لتعانقني؟ إذن كانت تحبني، أو قولوا كانت تريد أن تحبني. نعم، هذا هو التعبير الصحيح: كانت تريد أن تحب، كانت تسعى إلى أن تحب. والشيء الأساسي هو أنه لم يكن ثمة عيوب من تلك العيوب التي يجب عليها أن تحاول تبريرها وتسويغها. لعلكم تقولون إني مرابٍ أقرض برهن. والناس جميعًا يكررون هذا. ولكن ما شأن أن أكون مرابيًّا يقرض برهن؟ لا شك في أن هناك أسبابًا قد تدفع أكرم إنسان إلى أن يصبح مرابيًّا يقرض على رهون. إسمعوا أيها القراء الأصدقاء: هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباءً رهيبًا حين يُنطق بها، أي حين يعبرُّ عنها بألفاظ، حتى ليستحي صاحبها نفسه منها، فهي تقع من النفس موقعًا سيئًا، ويكون لها رنين رديء يؤذي السمع. ومع ذلك تكون هي الحقيقة،

الحقيقة بعينها! نعم، لقد « كان من حقي » أن أخرج من المأزق بفتح مكتب إقراض. «لقد نبذتموني يا معشر البشر، أي طردتموني بصمتكم الذي يفيض إزدراءًا، ورددتم على إندفاعاتي التي كانت تحملني إليكم بإساءة لن أنساها في يوم من الأيام أبدًا. فكان من حقى إذن أن أحمي نفسي منكم بجدار، أن أجمع ثلاثين ألف روبل، ثم أمضي إلى مكان بالقرم على الشاطىء الجنوبي أقضي فيه حياتي على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد إشتريتها بالثلاثين ألف روبل، فأحيا بعيدًا عنكم، ولكن دون أن أبغضكم، وأحتفظ بمثلي الأعلى في نفسي، تصحبني زوجتي مع أولادي إذا رزقني اللّٰه أولادًا، وأحاول أن أساعد الفلاحين الذين يجاورونني ». الحق أن من الأفضل أن أعترف لنفسي بكل هذا في هذه اللحظة. وإلا فهل يتخيل المرء شيئًا أشد غباوة وحماقة غباوةً وحماقةً من قصة كهذه القصة أرويها لها بصوت عالٍ؟ هذا هو السبب في ذلك الصمت المتكبر الصلف. هذا هو السبب في أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام. ثم ما الذي كان يمكن أن تفهمه من الأمر؟ إن سنها ستة عشر عامًا، فهي في مطلع الصبا... نعم، ما الذي كان يمكن أن تفهمه من تبريراتي ومن تباريحي وعذاباتي؟ إن طبعها بسيط ساذج، وإنها جاهلة بالحياة، وإن رأسها فوق ذلك كله مترع بالآراء السهلة التي هي من خصائص الشباب، وهي تتصف بما تتصف به « النفوس الجميلة » من عماوة. ثم هي ترى صندوق الإقراض بالربا ولا ترى سواه! فأنَّى لها أن تدرك! (ولكن هل كنت مرابيًّا جشعًا لا يرحم؟ ألم تر بنفسها أنني لا أغتني كثيرًا؟). آه... يا للحقيقة ما أشدها هولًا في هذا العالم! الحقيقة شيء رهيب! إن تلك اللؤلؤة، تلك الطفلة العذبة، كانت طاغية مستبدة، كانت طاغية تسوم نفسي عذابًا لا يُطاق. كانت لي جلادًا لا يرحم! أتظنون أنني كنت لا أحبها؟ من يستطيع أن يزعم أنني كنت لا أحبها؟ يا لسخرية القدر والطبيعة! إن اللعنة تطارد حياة البشر، حياة البشر عامةً، وحياتي أنا خاصةً. إنني أدرك الآن أن هناك أمرًا أخطأتُ فيه التقدير! إن هناك شيئًا لم يحدث كما كان ينبغي أن يحدث. لقد كان كل شيء واضحًا أشد الوضوح، كانت خُطتي صافيةً صفاء النهار: « هو قاسٍ، صلف، لا تواسيه تعزيات غيره، فيتألم ويتعذب صامتًا ». كذلك كان الأمر. أنا لم أكذب! لم أكذب! كنت أقول لنفسي: « لسوف ترى بنفسها أنني أصدر عن سمو في النفس، وأنها لم تلاحظ ذلك. حتى إذا أدركت، قدرتني عشرة أضعاف قدرها لي الآن، وارتمت على التراب ضامةً ذراعيها ضارعةً ومُبتهلةً ». تلكم كانت خطتي. ولكنني نسيتُ شيئًا، أو غاب عن بصري شيء. هناك أمر غفلت عن تلبيته.

كفى! كفى! من أستغفر، وممن أطلب العفـو؟ لقد إنتهى كل شيء. إنتهى كل شيء. أيها الرجل الجسور، كن متكبرًا صلفًا! لستَ أنتَ المذنب!

لسوف أقول الحقيقة؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهًا لوجه: إنها « هي » المذنبة... « هي »!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

5

العذبة تتمرد

بدأت المشاجرات لأنها إرتأت فجأةً أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيرًا، حتى لتعطي المقترض ضعفى قيمة الرهن، وقررت أن تعاندني في هذا. ولقد خالفتها في الرأي وعندئذٍ إنما تدخلت حكاية امرأة الكابتن...

في ذات جاءت امرأة عجوز هي زوجة كابتن، جاءت ترهن حلية هي هدية أهداها إليها المرحوم زوجها... فهي كما ترون ذكرى. فقدمتُ إليها قرضًا قدره ثلاثون روبلًا. وقد أخذت المرأة تئن بصوتٍ شاك طالبةً إلينا أن نحافظ على الحلية. وكنا سنحافظ عليها طبعًا! ثم إنقضت خمسة أيام فإذا بالمرأة العجوز تعود إلينا لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوي قيمته ثمانية روبلات. فرفضت ذلك طبعًا. ولا بد أنها لاحظت في نظرة زوجتي شيئًا حينذاك، فجاءت ذات يوم أثناء غيابي فقبلت زوجتي أن ترد إليها الحلية وأن تأخذ منها السوار.

فلما علمتُ بالأمر في ذلك اليوم نفسه، قلت بضع كلمات مقتضبة، ولكنني قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردها إلى الصواب. كانت جالسة على السرير تنظر إلى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها)، وكانت شفتاها تتقلصان بابتسامة ساخرة سيئة. لم أرفع صوتي صائحًا في تلك المناسبة، وإنما نبهتها بهدوء إلى أن المال « مالي أنا »، وأن من حقي أن أنظر إلى الحياة نظرتي الخاصة، وأنني حين دعوتها إلى بيتي لم أخفِ عنها شيئًا. فما إن سمعتُ هذا الكلام حتى وثبت واقفةً على حين فجأة، وأخذت ترتجف وترتعد، بل أخذت ـ مارأيكم؟ ـ تضرب الأرض بقدميها غضبًا وحنقًا وحش كاسر. نوبة عصبية! وحش كاسر إعترته نوبة عصيبة! ذُهلت. لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبدًا. ولكنني لم أفقد سيطرتي على نفسي، ولم أقم بأية حركة، وإنما أعلنت لها بذلك الصوت الهادىء نفسه أنني أحظر عليها أن تشارك في عملي منذ اليوم. فانفجرت تضحك، وخرجت من المسكن.

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك بيت الزوجية. ولقد إتفق رأينا منذ الخطوبة على ألا تذهب إلى أي مكان إلا بصحبتي.

وعادت في المساء. ولم أنطق بكلمة.

وخرجت في الغد، وخرجت في غداة الغد. فأغلقت مكتبي، ومضيت إلى بيت عمَّتيها. كنت قد قطعت علاقاتي بهما منذ يوم زواجنا: فلا هما تأتيان إليَّ، ولا أنا أذهب إليهما فعلمت هناك أنها لم تجىء إلى عمَّتيها. وقد أصغت العمتان إليَّ مستطلعتين، بل لم يفتهما أن تضحكا عليَّ، وقالتا لي: « تستحق! ». ولم

أكن أتوقع أن تستهزئا بي وتتهكما عليَّ. ولكنني رشوت إحداهما ـ وهي العانس ـ بمائة روبل دفعت لها منها خمسة وعشرين روبلًا على الحساب. فما إنقضى يومان حتى جاءتني العمة العانس تقول لي: « إن لضابط من الضباط هو الليوتنان يافيموفتش الذي كان أحد رفاقك في الجيش ضلعًا في الأمر ». صعقني هذا الكلام صعقًا. إن يافيموف هذا هو الرجل الذي ألحق بي الأذى والضرر في الجيش أكثر من أي شخص آخر. وقد تجاسر منذ شهر فجاء إلى مكتبي مرتين بحجة أنه يريد إيداع رهن واقتراض مال. وإني لأتذكر أيضًا أنه أخذ يمازح زوجتي. فاقتربت منه وأمرته بألا تطأ قدماه بيتي بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التي بيننا. ولكن لم تساورني أية شبهة ولم يخامرني أي ظن؛ وكل ما انصرف إليه ذهني أن الرجل سيىء الخلق قليل الحياء. ولكن ها هي ذي العمة تنبئني الآن أنهما قد تواعدا، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت في الماضي من صاحبات العمتين، وهي أرملة اسمها جوليا سامسونوفنا كان زوجها كولونيلًا. وقالت لي العمة العانس: « إليها إنما تذهب الآن زوجتك ».

لا داعي إلى سرد التفاصيل. حسبي أن أذكر أنني ضيَّعت ثلاثمائة روبل، ولكنني توصلت بعد يومين إلى تدبير كل شيء على النحو الذي يكفل لي أن أكون في الغرفة المجاورة للغرفة التي سيختلي فيها يافيموف بامرأتي لأول مرة، فأتنصت عليهما. وقبل أن يحين الموعد بيوم، حدث بيني وبين زوجتى شجار قصير كان لا بد أن يبدو لي بليغ الدلالة.

لقد رجعت إلى البيت في نحو المساء، فجلست على حافة السرير، و نظرت إليَّ ساخرةً بينما هي تضرب السجادة بنعل حذائها. فإذا أنا يخطر ببالي على حين فجأة وقد وقع بصري عليها أنها قد أصبحت في هذا الشهر غير ما كانت، حتى لقد أصبحت نقيض ذاتها. فهي الآن شديدة الخنق، وشرسة الخلق كثيرة التعدي، ولا أقول وقحة، وإنما أقول مضطربة زاخرة بروح التمرد. وكانت هي تحاول أن تستثير في نفسها روح التمرد هذه. ومع ذلك كانت عذوبتها ورقتها ودماثتها تمنعها من الإنقياد للتمرد. إن المرأة العذبة الرقيقة الدمثة مهما تتجاوز الحدود في انتقالها إلى التمرد، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هي هذه الطبيعة، وإنما هي تُكرِه نفسها على العصيان إكراهًا، ولا تفلح أبدًا في التغلب على كل خفر وكل تحفظ. وهذا النوع من المزايا هو الذي يحيِّر الخصم ويفل سلاحه أكثر من سائر المزايا، لأنه يجعله هو نفسه مترددًا في تصديق ما تراه عيناه. ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة، فإنها تستطيع دائمًا أن تكون أكثر قصدًا واعتدالًا، وتعرف كيف توغل في الدناءة متسترةً بمظهر الأدب والحشمة، فتُضّلك بذلك عن نفسها وتخدعك.

كسرت امرأتي الجليد فجأةً فقالت تسألني ملتمعة العينين:

- هل صحيح أنك طردت من الجيش لأنك خفت من الاقتتال في مبارزة؟

صحيح. رجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط، رغم أنني قدمت طلب تسِريحي قبل ذلك •

ـ أطردوك إذنْ بسبب جبنك؟
ـ نعم، عدوا ذلك مني جبنًا. والواقع أنني لم أرفض المبارزة جبنًا، وإنما رفضتها لأنني لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغي المستبد فأدعو الى المبارزة على إعتقادي بأنني لم تنلني إهانة.
ولم أستطع أن أكظم غيظي فأردفت أقول لها:
ـ هل تعلمين أن مقاومة هذا الإستبداد الباغي ورفض ما يترتب عليه من نتائج دليل على شجاعة أكبر كثيرًا من شجاعة الإقتتال في أية مبارزة؟
لم أستطع أن أسيطر على نفسي فأمسك عن إطلاق هذه الجملة، فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكي. وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده: أعني هذه المذلة الجديدة من جانبي. فإذا هي تضحك ضِحكةً كاسرة. وأردفت تسأل:
ـ وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد في شوارع بطرسبرج، وتستعطي الصدقات، وتنام ليلك على موائد البلياردو.
- وكنت أنام أيضًا في و سـوق العلف، بمنزل نيازمسكي. هذ صحيح: فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الخزي والعار، والفاقة والبؤس، ولكن أخلاقي لم تسقط، لأنني كنت أول من يأسـف لما يصدر عني من أعمال. لقد كان بؤسى بؤس إرادة وعقل، ولم يكن لهذا البؤس من مصدر إلا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد. ولكن هذا أمر مضى وانقضى... آ... طبعًا! أنت الآن شخص مرموق، أنت الآن من رجال المال!
وكان ذلك إشارة منها إلى أنني مرابٍ طبعًا. ولكنني استطعت أن أسيطر على نفسي وأن أتحكم بسلوكي. لقد رأيت أنها شديدة الرغبة في أن تحصل مني على إيضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتي. لذلك حاذرت أن أقول لها شيئًا. وواتاني الحظ فدق الجرس زبون فمضيت إلى الصالة للقائه.
وبعد ساعة، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأةً لتخرج، تسمرت أمامي وقالت لي:
ـ ذلك لا ينفي أنك لم تحدثني بشيء من هذا كله قبل زواجنا.
فلم أجبها. وخرجت.
وفي الغد كنت لاطيًّا في تلك الغرفة أتنصت عليهما وأنتظر مصيرى واضعًا مسدسي في جيبي. كانت هي جالسة بقرب الطاولة، وكان يافيموف يتغنج أمامها. فماذا حدث؟ (إن ما أقوله هنا يشرفني إلى أقصى حد). لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعيًا ذلك التوقع وذلك الإفتراض. لا أدري هل أحسن التعبير، فأجعلكم تفهمون ما أريد أن أقول.
إليكم ما حدث. لقد ظللت أنصت ساعة كاملة، فشهدت خلال هذه الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوقٍ حقير متصنع فاسق خسيس النفس نذل. قلت أسائل نفسى مدهوشًا مذهولًا!
- كيف تعلمتوهذه المرأة الساذجة، هذه المرأة العذبة، هذه المرأة التي لا تتكلم إلا قليلًا جدًّا، كيف تعلمت هذا كله؟ إن أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية لا يستطيع أن يتفتق خياله عن مِشهد فيه مثل هذه

السخريات وهذا الضحك، عن مشهد تعبث فيه الفضيلة أبدع العبث بالرذيلة، وتحتقرها أحسن الإحتقار. ما كان أحذقها في حديثها، وحتى في أيسر ألفاظها، وما كان أرهف ذكاءها في أجوبتها السريعة، وما كان أصوب أحكامها في آرائها السديدة!. وكانت في الوقت تدل على براءة بكر وسذاجة عذراء. كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بحبه، ومن حركاته واشاراته، ومما يقدمه لها من عروض. لقد جاء إلى هذا المكان وهو ينتوي أن يعمد إلى هجوم مباغت، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة، فإذا بظنونه كلها تذهب بددًا. كان يمكن أن أفترض في أول الأمر أن ذلك لم يكن منها إلا دلالًا، هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء في فجورها ولا تنقصها الفكاهة في خلاعتها، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معتزة بهما، ولكن لا. لقد كانت الحقيقة تسطع سطوع الشمس. فلا سبيل إلى الشك فيها. كل ما في الأمر أنها من بغضها لي، وهو بغض متصنع مرده إلى الحنق والغيظ، قد أمكنها لقلة خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء. ولكن ما ان حان حين الإنتقال إلى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور. كانت تريد أن تهينني بجميع الوسائل، ولكنها رغم أنها قررت أن تتدحرج في الوحل لم تحتمل رؤية مثل هذا الفساد. ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أي شخص سخيف تافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهرة التي تسعى إلى مثلٍ أعلى؟ بالعكس: ما كان لرجل مثله إلا أن يثير فيها الضحك. كانت الحقيقة كُلها تعصي وتتمرد في نفسها، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهكمة. أعود فأقول إن هذا الشخص السخيف المضحك قد شُدِهَ من ذلك شُـدهًا شديدًا، وجلس في آخر الأمر كالح الهيئة متجهم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ يشتمها إرضاءً لحقده الدنيء. وأعود فأكرر مرة أخرى أن رؤيتي هذا المشهد بغير دهشة أمر يشرفني، لقد كنت كمن إلتقى بوجه يعرفه بعد أن غاب عنه زمنًا، وتعمد أن يجيء الآن ليلقاه. لقد جئت وأنا لا أعرف شيئًا، ولا أحمل في نفسي أي إتهام، رغم تسلحي بمسدس في جيبي. تلكم هي الحقيقة. وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك؟ لماذا كنت قد أحببتها؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها؟ لماذا كنت قد تزوجتها؟ صحيح أنني كنت مقتنعًا أشد الإقتناع بكرهها لي، ولكنني كنت مقتنعًا ببراءتها وطهارتها كذلك.

ها أنا ذا أنهي المشهد، فأفتح الباب فجأة، وأدخل عليهما. إنتفض يافيموف. وأمسكتُ يدها ودعوتهـا أن تخرج معي. وثاب يافيموف إلى رشده، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكًا مجلجلًا متدفقًا، وقال:

آ ٠٠٠ خذها، خذها، لا إعتراض لي على قداسة الواجبات الزوجية.

وصاح يقول ورائي:

- واعلم أنني رهن اشارتك، رغم أنه لا يسع رجلًا شريفًا أن يبارزك دون أن يخفض قدره، ويفقد حشمته... هذا إذا كان لك من الشجاعة ما يدفعك إلى طلب المبارزة.

قلتُ لزوجتي وأنا أجبرها على التوقف لحظةً في العتبة:

- سمعتِ؟

ثم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا. وكنت قد قبضت على ذراعها، فلم تبـدِ أية مقاومة. حتى لقد كانت مشدوهة مذهولة. غير أن ذلك لم يطل كثيرًا، فما ان وصلنا إلى البيت ودخلنا حتى جلست على كرسي، وأخذت تحدجني بنظرة ملحة. كانت شاحبة اللون شحوبًا رهيبًا. ورغم أن شفتيها قد عادت إليهما ابتسامتهما الساخرة فورًا، فإن نظرتها كانت تتحداني تحديًّا يحمل معنى الإنتصار؛ وأظن أنها لبثت عدة دقائق موقنةً بأنني سأقتلهـا برصاصة مسدس. ولكنني أخرجت سلاحي من جيبي بهدوء، ووضعته على المائدة. (لاحظوا أن هذا المسدس مألوف لها، وأنني لقمته منذ فتحت مكتبي، اذ كنت قد قررت حين فتحت هذا المكتب أن أستغني عن كلب حراسة وعن خادم قوي الجسم شديد البأس كما يفعل موزير. وكانت الطباخة عندي هي التي تفتح الباب للزبائن. ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم، فمن باب الإحتياط لكل طاريء إنما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقومًا على الدوام. وقد اهتمت هي نفسها اهتمامًا كبيرًا بهذا المسدس في الآونة الأولى من دخولها إلى بيتي، وسألتني عن أجزائه واستعماله، حتى لقد أقنعتها بأن تسدد إلى الهدف وتطلق رصاصة. لاحظوا هذا كله). واستلقيت على سريري دون أن أخلع إلا نصف ثيابي، ودون أن أنتبه إلى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة. كانت الساعة الحادية عشرة تقريبًا. وظلت هي في مكانها ساكنة جامدة زهاء ساعة. ثم أطفأت الشمعة، واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هي أيضًا، مُتجهةً بوجهها إلى الحائط. تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد. لاحظوا هذا أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



6

ذكرى فظيعة

هنا مكان ذكرى فظيعة...

استيقظت صباحًا في نحو الساعة الثامنة فيما أظن، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريبًا. استيقظتُ دفعة واحدةً، واعيًا كل الوعى صاحيًّا كل الصحو، وفتحت عيني فجأةً، فرأيتها واقفة بقرب المائدة، ممسكةً المسدس بين يديها. ولم ترَ أنني استيقظت وأنني كنت أنظر إليها. ورأيتها تقبل على بغتةً والمسدس بيدها. فأغمضت عيني فورًا وتظاهرتُ بأنني نائم نومًا عميقًا.

وصلت إلى سريري، ومالت عليَّ. وكنت أسمع كل شيء. ورغم أن صمتًا كصمت الموت خيَّم، فقد كنت أسمع هذا الصمت. وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتني أفتح عينيّ مرة ثانية على حين فجأة. فنظرت محدقةً إلى عينيّ بنظرة ثابتة، بينما استقرت فوهة المسدس على صدغي. إلتقى بصرانا. ولكننا لم ينظر أحدنا إلى الآخر إلا لحظة واحدة. وأجبرت نفسي على أن أعود إلى الاغماض، واستجمعت شتات فكري، فعملت جاهدًا على ألا أتحرك البتة، وعلى ألا أعود إلى فتح عينيّ مهما يحدث من أمر.

إنه ليحدث فعلًا أن يكون امرؤٌ نائمًا نومًا عميقًا، فإذا هو يفتح عينيه فجأة، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه، ثم إذا هو يهوي برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئًا.

إنني بعد أن إلتقى بصري ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغي، قد أغمضت عينيَّ فجأةً، ولم أتحرك بعد ذلك البته، فكأنني كنت نائمًا نومًا عميقًا، وكان في إمكانها أن تفترض أنني كنت نائمًا بالفعل وأنني لم أبصر شيئًا، ولا سيما أن إغماضي عينيَّ بعد أن رأيت الأمر يكون شيئًا لا يُعقل أن يحدث، أو لا يحتمل أن يقع...

نعم، لا يُعقل أن يحدث، لا يحتمل أن يقع. ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة. خطرت هذه الفكرة في ذهني كالبرق. آه... يا لزوبعة الأفكار والإحساسات التي عصفت في نفسي إبان لحظة واحدة! إن علينا أن نعجب أشد الإعجاب بهذه الكهرباء في فكر الإنسان. وأحسستُ في تلك اللحظة أنها إذا حزرت الحقيقة وعرفت أنني غير نائم، فلا بد أن يكون رضاي بالموت قد سحقها سحقًا، ولعل يدها قد أخذت ترتجف. ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الخارق قد حطمت ما كانت قد إتخذت من قرار. يُقال أن الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب إلى الهاوية. وأحسب أن كثيرًا من حوادث الإنتحار وجرائم القتل لم تقع إلا لأن المسدس كان في اليد. ثمة هوة هنا أيضًا، ثمة إنحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه إلا أن ينزلق إلى تحت. إن نداءً لا يقاوم ولا يغالب يهيب بنا أن نضغط

على الزناد. ولكن شعورها بأنني رأيت كل شي ء، وأنني أعلم كل شيء، وأنني أنتظر صامتًا أن تأتيني منها الضربة القاتلة، كان يمكن أن تعصمها من الإنزلاق.
وطال الصمت. وأحسست على صدغي وعلى شعري ببرودة ملمس الحديد. قد تسألونني هل كنت آمل أملًا جازمًا قاطعًا في أن أنجو مرةً أخرى. فاعلموا ـ واللّٰه على ما أقول شـهيد ـ أنني كنت قد فقدت كل أمل، أو لو يكن أملي يزيد على واحد من مائة. فلماذا إرتضيتُ أن أموت؟ إني لأسألكم: ما عسى تكون قيمة الحياة في نظري بعد المسدس الذي صوَّبه إليَّ إنسان أعبده عبادة؟ ثم إنني كنت أعرف معرفةً لا يتسرب إليها الشك، إن صراعًا قد نشب بيننا في تلك اللحظة، صراعًا هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت، مبارزة من نوع المبارزة التي حضَّني عليها رفاقي في الماضي، ثم طردوني لإعراضي عنها جبنًا. كنت أعلم ذلك، وكانت هي تعلمه. هذا إذا صحَّ أنها حزرت أنني لم أكن نائمًا.
ومن الجائز ألا يكون شيء من هذا قد جرى، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينذاك في ذلك كله، ولكن أغلب الظن أن يكون هذا هو ما جرى، لأنني منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظةً في ساعة من حياتي.
ولكن قد تسألونني أيضًا: « لماذا لم تمنعها من إقتراف جرم فظيع؟ ». فاعلموا أن هذا هو السؤال الذي ألقيته على نفسي ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسري في ظهري رعدة. لقد كانت نفسي ممتلئة حينذاك بيأس مظلم: كنت أنا نفسي هالكًا، فمن ذا الذي كان في وسعي أن أنقذه؟ ثم ما أدراكم! هل كنت أحرص فعلًا على أن أنقذ أحدًا في تلك اللحظة؟ من ذا يعلم ما الذي كنت أحسه؟
ولكن شعوري كان مع ذلك يقظًا. ومرَّت الثواني، وران صمت كصمت الموت. ولا تزال هي ماثلة عليَّ. ثم إذا أنا أرتعش أملًا. فأفتح عينيَّ. فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة. نهضتُ عن سريري. وخرجتُ منتصرًا غالبًا، بينما أصبحت هي منهزمة مغلوبة إلى الأبد.
مضيتُ أجلس بقرب السماور. كان الشاي يُشرب عندنا دائمًا في الغرفة الأولى، وكانت زوجتي هي التي تصبُّه. جلست صامتًا، وتناولتُ من يديها كأس الشاي. وألقيتُ عليها نظرة بعد خمس دقائق. كانت شاحبةً شحوبًا رهيبًا مخيفًا، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس وكانت تنظر إليَّ. فلما لاحظت نظرتي إليها إذا بشفتيها اللتين زال عنهما لونهما تلمُّ بهما إبتسامة باهتة، واذا بعينيها تعبرَّان عن سؤال. قلت لنفسي: « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتتساءل: أيعلم أم لا يعلم. أرأى أم أنه ما رأى؟ ». أشحت نظري مصطنعًا قلة الإهتمام. حتى إذا فرغنا من الشاي، أغلقت المكتب، ومضيتُ إلى السوق فاشتريتُ سريرًا من حديد، وحاجزًا. ورجعتُ إلى البيت، فوضعت السرير في الصِالة وراء الحاجز. إنه سرير لها، ولكنني لم أقِل لها عن ذلك

كلمة واحدة. فأدركت هي من وجود هذا السرير و أنني رأيت كل شيء، وعلمت كل شيء، ما في ذلك ريب. وفي تلك الليلة تركت المسدس على المائدة كعادتي في كل ليلة. ورقدت هي صامتةً على سريرها الجديد: لقد إنحل الزواج. « وغُلبت هي لكنها لم يُغفر لها ». وانتابها في تلك الليلة هذيان. وظهر في الصباح أنها أصيبت بحمى حارة. فبقيت راقدة ستة أسابيع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

1

حلم خيلاء وصلف

أبلغتني لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي، وأنها ستمضي متى تمَّ دفن مولاتها. فركعت على ركبتيَّ وصلَّيت خمس دقائق. كنت أريد أن أصلي ساعة، ولكنني لم أزد على أن أفكر ثم أفكر مريض العقل مريض الرأس؛ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الإثم؟ والشيء العجيب أنني لم أشعر برغبة في النوم أيضًا. إن المرء حين يعاني حزنًا كبيرًا، حين يكابد كربًا هائلًا بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى، لا يشتهى إلا أن ينام. يُقال إن المحكوم عليهم بالإعدام ينامون نومًا عميقًا أشد العمق في ليلتهم الأخيرة. ولا بد أن يكون الأمر كذلك، فهذا يوافق الطبيعة، وإلا لما استطاعت قوى الإنسان أن تصمد...

اضطجعت على الديوان، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني.

... أثناء مرضها الذي دام ستة أسابيع كنا نتناوب القيام عليها نهارًا وليلًا أنا ولوكيريا وممرِّضة محترفة جئت بها من المستشفى. لم أحفل بالنفقات. حتى لقد كنت لا أنشـد إلا أن أنفق من أجلها. واستدعيت الدكتور شرودر، ودفعت له أجرًا قدره عشرة روبلات. وحين عاد إليها وعيها، أصبحت لا أظهر لها إلا من حين إلى حين. ولكن ما حاجتي إلى ذكر هذا كله؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسةً في غرفتي قرب مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة، وكانت تبقى جالسةً بهدوء لا تنطق بكلمة... نعم، كنا نصمت، هذا صحيح. بل قل أننا قد بدأنا نتبادل بعض الكلام، ولكن أحاديثنا لا تتناول إلا أمورًا تافهة مبتذلة. وكنت أتعمد طبعًا ألا أبتعد في كلامي عن هذه الأمور المبتذلة وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ. كنت أقول لنفسي: « إنها مهتزة أشد الاهتزاز، مهدَّمة أكبر التهدم، فيحسن أن أتيح لها الوقت اللازم للنسيان واسترداد قوتها ». فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت. ولكنني كنت في كل لحظة متأهبًا لكل ما قد يطرأ. وكنت أقدر أن حالها كحالي، وكان يعصف بي شغف شديد رهيب بأن أتساءل: «تُرى في أي شيء تفكر الآن؟».

سأقول لكم شيئًا آخر. لا يتصور أحد طبعًا مدى ما عانيت من ألم حين كنت أئِنُّ وأنتحب أثناء مرضها. ولكنني كنت أنتحب بيني وبين نفسي، وأكظم أنيني في صدري، وأخفي شِكاتي حتى عن لوكيريا. وكنت لا أستطيع أن أتصور، لا أستطيع أن أفترض أنها قد تموت دون أن تعلم شيئًا. وإني لأتذكر أنني حين زال عنها الخطر وارتدت إليها العافية، قد هدأت نفسي هدوءًا كاملًا بسرعة. وأكثر من ذلك أنني قررت « أن أرجىء مسألة مستقبلنا » ما استطعت إرجاءها، وأن أدع الأمور على حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلي في المستقبل الذي أرجو أن يبقى بعيدًا. نعم، إن ما يحدث لي في ذلك الحين كان شيئًا

عجيبًا غريبًا لا أجد كلمة تصفه إلا أن أقول أنني كنت « أنتصر »، وكان شعوري بهذا الإنتصار يبدو لي كافيًا كل الكفاية. هكذا انقضى الشتاء كله. آ... كنت راضيًا مسرورًا كما لم أكن راضيًا ولا مسرورًا في أي يوم من أيام حياتي حتى ذلك الحين ودام رضاي وسروري الشتاء كله.
اسمعوا. لقد مررت في حياتي بظرف أليم كان إلى ذلك اليوم، أي إلى تلك المصيبة التي نزلت بزوجتي، جاثمًا على صدري يخنقني خنقًا في جميع الأيام، وفي كل ساعة من ساعات اليوم ألا وهو - باختصار ـ فقداني سُمعتي وطردي من الجيش. وكان ذلك الأمر ظلمًا لي، ظلمًا مليئًا بالطغيان والاستبداد، وخاليًا من الرأفة والرحمة. هناك حقيقة يجب أن أذكرها، هي أن رفاقي كانوا لا يحبونني بسبب طبعي الذي كان صعب المراس، وربما كان باعثًا على الضحك، وإن كان يحدث في كثير من الأحيان أن ما يبدو لامرىء من الناس رائعًا ساميًا ثمينًا مجيدًا داعيًا إلى الفخر مُشرِفًا يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبة بأسرها من الرفاق، لا تدري لماذا ولا كيف!
المهم أنني أنا لم أكن محبوبًا في يوم من الأيام، حتى في المدرسة. ما أحبني أحد في أي مكان ولا أي زمان. لوكيريا أيضًا لا تستطيع أن تحبني. ولكن ما وقع لي في الجيش، على أنه يرتبط بما يحمله لي رفاقي من عواطف الكره، إنما كان مردُّه إلى مصادفة صرف. ويهمني كثيرًا أن أكرر أنه لا شيء يسيء إلى المرء ولا شيء يفوق طاقة المرء على الإحتمال كأن يضيع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا تحدث، أو بتضافر عدد من الظروف تضافرًا مشئومًا، وهي ظروف كان يمكن تتبدد كالدخان. ذلك في نظر الإنسان الذكي إذلال لا يضارعه إذلال. وإليكم تلك المصادفة:
أثناء حضوري مسرحية من المسرحيات، وفي فترة الإستراحة بين فصلين من فصول المسرحية، مضيتُ إلى البوفيه لأصيب شيئًا من شراب. فإذا بالضابط « آ....وف »، وهو ضابط في سلاح الفرسان، يدخل إلى البوفيه بسرعة كسرعة الريح، ويقول لرفيقين من رفاقه بصوت عالٍ على مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضُباط آخرين، إن قائد فوجنا بيزومتسيف قد أثار فضيحة في دهاليز المسرح، وأنه ربما كان ثملًا قد « أخذ السكر منه كل مأخذ ». ولم يتصل الحديث. وكان عدا ذلك خطأً. لأن الكابتن بيزومتسيف لم يكن سكرانًا، ولا كان الأمر الذي حدث خليقًا بأن يُعدَّ فضيحة. وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شيء آخر،
ووقف الأمر عند هذا الحد. ولكن فوجنا كان في الغد على علم بالقصة، وسرعان ما راج أنه لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيري، وأنني لم أحتجَّ على «آ...وف» حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومتسيف، ولا إتجهتُ إليه بأي تقريع لأسكته. وفيم كان ينفع الاحتجاج أو التقريع؟ إذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقدًا على بيزومتسيف لسبب من الأسباب، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لي بها، ولا داعي إلي تدخلي فيها.

ولكن ضباط فوجي لم يعدُّوا الأمر أمرًا شخصيًّا، واعتقدوا أن الأمانة قد لحقت بالفوج كله؛ وإذ لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيري حين ذاك، فإنني بسكوتي قد برهنت للجمهور والضباط الذين كانوا في البوفيه أنه يمكن أن يضم فوجنا ضباطًا لا تثيرهم إهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم. وكان لا يمكن أن أسلم بهذا الرأي. وأبلغوني أنني مازلت أستطيع إصلاح الأمر، اذا أنا إرتضيتُ، رغم تأخري، أن أدعو الضابط «آ...وف» إلى المبارزة غسلًا للعار، فلم أحبب ذلك، وكنت محتدًا فرفضت العرض بتكبر واستعلاء، وسرعان ما قدمت إستقالتي. تلكم هي القصة. لقد خرجت متغطرسًا، ولكن محطمًا. وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون زوج أختي، الذي يقيم بموسكو، قد بدَّد إرثنا المتواضع وحصتي من هذا الارث، فإذا أنا أجد نفسي في الشارع لا أملك قرشًا.
ولقد كان يمكن أن ألتمس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها، لكنني لم أرتضِ لنفسي هذا: فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف في السكة الحديدية، بعد أن كنت أرتدي بزة عسكرية لألاءة متألقة. وأخذت أتدهور: فمن دناءة إلى دناءة، ومن خزي إلى خزي، ومن إسفاف إلى إسفاف، إذ اخترتُ أن يكون شعاري هو: كلما ازددت سوءًا وشرًا، كان ذلك أفضل وأحسن. قضيتُ على هذه الحال ثلاث سنين ما أبشع ذكراها! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى إلى منزل فيازمسكي. ومنذ سنة ونصف سنة، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هي عرّابتي، فإذا هي تورثني في وصيتها مبلغ ثلاثة آلاف روبل. ففكرت في أمري، واتخذت قراري فيما يجب عليَّ أن أسلك من سبيل وأن أحترف من مهنة. عزمت على أن أفتح مكتب إقراض برهون، لا أستغفر أحـدًا ولا أطلب من أحد عفوًا أو صفحًا. قلتُ لنفسي: بذلك أجني مالًا، وأبني أسرة، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضي. تلكم كانت مشاريعي. ولكن ذلك الماضي المشئوم وتلك السمعة التي ثلمت شرفي إلى الأبد كانا لا ينفكان يعذبانني في كل لحظة وفي كل دقيقة. وفي أثناء ذلك تزوجت. فإن سألتموني هل كان ذلك مصادفة أم لا، قلتُ إنني لا أعرف. ولكنني كنت أعتقد حين أدخلتها إلى بيتي أنني أدخل صديقة، فما كان أشدُ حاجتي إلى صديقة! وكان لا يفوت بصري مع ذلك أن هذه الصديقة كان ينبغي لي أن أهيئها وأن أعمل فيها بل أن أنتصر عليها أيضًا. فهل كان يمكنني أن أشرح الأمور دفعة واحدة، لهذه المرأة الشابة التي لا تتجاوز سنُّها ستة عشر عامًا، والتي تزخر نفسها بأفكار مستقرة راسخة؟ كيف كان يمكنني مثلًا ً، لولا أن أسعفتني المصادفة التي أدَّت إلى الكارثة الرهيبة، أعني مصادفة المسدس، أن أقنعها بأنني لستُ جبانًا رعديدًا، وأن إتهامي في الجيش بالجبن كان ظلمًا. ولكن الكارثة قد أوضحت كل شيء. فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغي، ثأرتُ لكل ماضيَّ المشئوم. واذا لم يكن أحد قد عرف بذلك فقد عرفته « هي »، وكان هذا حسبي، فقد كانت عندي كلَّ شيء، وكانت كل أمل مستقبلي على نحو ما

كنتُ أراه في أحلامي! ولو أردت أن أختار لهذا أحدًا، لما اخترت غيرها، فلم أكن في حاجة إلى أحد سواها، وها هي ذي قد عرفت كل شيء، أو عرفت على الأقل أنها أفرطت في التسرع والتعجل حين انضمت إلى أعدائي. فلا يمكن أن أكون بعد الآن في نظرها جبانًا، بل إنسان غريب الأطوار في أكثر تقدير، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءني كثيرًا بعد كل ما حدث: فليس عيبًا أن يكون الرجل غريب الأطوار، حتى إن هذه الصفة تعجب مزاج النساء في بعض الأحيان. الخلاصة أنني تعمدت أن أرجىء إنتهاء الأمر إلى أية خاتمة: فما حدث كان يكفيني، كان يكفيني في ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطري وتطمئن نفسي، وكان إلى ذلك يغذي أحلام يقظتي بصور كثيرة. إن أسوأ صفة مشئومة من صفات طبعي هي أنني أمرؤٌ حالم، فكانت لا تعوزني موضوعات تدور عليها أحلامي في اليقظة. أما هي فأظن أنها « كانت تنتظر ».

على هذه الحال إنما إنقضى الشتاء كله انتظارًا. وكنت أحب أن أتأملها خِلسةً حين تجلس بقرب المائدة. كانت تعمل في تطريز بعض الأغطية. وكانت في بعض الأحيان تقرأ كُتبًا تأخذها من مكتبتي. فكان اختيارها كتبًا من مكتبتي خليقًا هو أيضًا بأن يشهد لي بالفضل والتميز وكانت لا تكاد تخرج أبدًا. فكنتُ أصطحبها كل يوم عند الغسق بعد العشاء في نزهة، فنتروض قليلًا، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا في الماضي. كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصمت، فكأن تفاهمًا تامًا قد قام بيننا. ولكننا، كما سبق أن قلت، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث. وكنت أفعل ذلك عامدًا، لاعتقادي بأن عليَّ أن أترك لها « فسحة من الوقت ». ولا شك أنه أمر غريب أنني لم يخطر ببالي مرةً واحدة حتى نهاية الشتاء، أنني إن كنتُ أحبُ أن أتأملها خلسةً من حين إلى حين، لم أفاجئها تلقي عليَّ نظرةً طوال تلك المدة! وقد عزوت غضَّها الطرف إلى خجلها وحيائها. هذا إلى أن هيئتها كانت زاخرة بمعاني المذلة والدماثة والعذوبة، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنةً أكبر الوهن منذ مرضها! فكان الأفضل أن أنتظر، وكنت أقول لنفسي: « لسوف ترجع إليك من تلقاء ذاتها يومًا »..

وقد إتفق لي في ذلك الشتاء أن قمت ببعض الحسنات متعمدًا فألغيت دينين، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن؛ ولم أذكر ذلك لزوجتي، ولا فعلته لتعلم به، ولكن المرأة جاءت تشكر لي صنيعي وهي تكاد تجثو على ركبتيها تعبيرًا عن امتنانها. فشاع الأمر. وبدا لي أن امرأتي شعرت بسرور صادق حين علمت به.

ولكن الربيع كان يُقبِل، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل)، ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة، وأخذت الشمس ترسل إلى داخل غرفتينا الصامتتين أشعة دافئة قوية. ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على فكري وتبثِ فيه الإضطِراب. غشاوة قاتلة رهيبة! فكيف حدث أن زالت تلك الغشاوة

فجأة، فإذا أنا أرى كل شيء وأفهم كل شيء؟ أكان ذلك بمصادفة محضة؟ أكان ذلك هو اليوم الذي حدَّده القدر؟ هل جاء شعاع من شمس فأشعل في فكري المخبول تلك الفكرة، وأنبت ذلك الإكتشاف؟ لا، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافًا، ولابد أن شريانًا كان ساكنًا فتحرك، أو أن وترًا كان جامدًا فاهتز، فإذا هو يضيء نفسي كلها على حين فجأة، وإذا هو يستثير كل خيلائي الشيطانية. لقد انتفضتُ عندئذٍ انتفاضةً مباغتةً، مفاجئةً، لم تكن في الحسبان أبدًا. وقع الحادث في المساء، الساعة الخامسة، بعد العشاء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



2

الغشاوة التي سقطت

إليكم أولًا هاتين الكلمتين. كنت قد لاحظت لديها منذ شهر اكتئابًا غريبًا. لم يبق الأمر صمتًا بل صار اكتئابًا. ذلك أيضًا قد إنكشف لي فجأة. كانت جالسة تُطرِّز مائلة على شغلها برأسها، فلا ترى أنني أنظر إليها. فما كان أشد إستغرابي، على حين غرة، حين رأيتها مهزولة ذلك الهزال كله، نحيلةً ذلك النحول كله! كان وجهها شاحبًا، وكانت شفتاها باهتتين لا لون لهما. ذلك كله شدهني بغتةً إلى أقصى حد، وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسى وحزن وكآبة. وكنتُ قد سمعت ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن، ولا سيما في الليل. فما إن رأيتها هذه المرة على هذه الحال حتى مضيتُ إلى الدكتور شرودر فورًا دون أن أقول لها كلمة واحدة.

وجاء الدكتور شرودر في الغد. فدهشت هي من مجيئه دهشةً كبيرة، فكانت نظراتها تتجه إليه تارةً، وتتجه إليَّ تارةً أخرى. وقالت وهي تبتسم إبتسامةً لا يمكن تحديد معناها:

ـ ولكنني بخير.

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلًا (إن لهؤلاء الأطباء أسلوبًا في التعالي عليك أحيانًا)، واكتفى بأن قال لي في الغرفة الأخرى أن هذا من بقايا مرضها، وإنها لن يضرها أن تسافر في الربيع إلى البحر تستنشق هواءه، أو أن تمضي إلى الريف في أقل تقدير. أي أنه لم يقل شيئًا، سوى أنها تعاني من فقر في الدم، أو شيء من هذا القبيل.

وحين انصرف شرودر عادت تقول لي وقد لاح في وجهها جد شديد صارم:

ـ أنا بخير وعافية، لست مريضة.

ولكنها حين قالت هذا الكلام إصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل مردها إلى الخجل، بل إن مردها إلى الخجل قطعًا، فقد كان ذلك واضحًا. آه.. إنني أدرك هذا الآن: كانت تشعر بخجل من أنني لا أزال « زوجها »، وأنني ما زلت أهتم بها إهتمام زوج حقيقي. ولكنني لم أفهم من ذلك شيئًا حين ذاك، ونسبت إحمرار وجهها إلى شعورها بالمذلة (آهٍ من الغشاوة!).

وها أنا ذا، بعد إنقضاء شهر على ذلك، في نحو الساعة الخامسة من الأصيل، في يوم ساطعة شمسه من أيام شهر نيسان (أبريل)، كنت جالسًا في مكتبي أُجري بعض الحسابات، فإذا أنا أسمعها تدندن في الغرفة المجاورة، أثناء عكوفها على تطريزها، أغنية من الأغنيات بصوت رقيق خافت. فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذي لا عهد لي به منها أن هزني هزًّا قويًّا. نعم، وإنني لم أفلح في فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم. لم أكن قد سمعتها تُغني قبل ذلك، اللهم إلا في الأيام الأولى من دخولها بيتي حين كنا لا نزال نتسلى بتصويب

المسدس واطلاق النار على هدف. وكان صوتها في ذلك الحين قويًّا رخيمًا، وكان سليمًا ومطربًا رغم ما يدل عليه من ضعف الثقة بالنفس. أما الآن فإن غناءها ضعيف أشدَّ الضعف! لن أقول أنه غناءُ حِداد (ولقد كانت الأغنية إحدى الرومانسيات)، غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم، وكأنه لا يستطيع أن يخرج من صدرها، وكأن الأغنية نفسها مريضة. كانت تغني بصوت خافت، فما إن يرتفع صوتها فجأةً حتى يتحطم، وكان من شدة النحول والفقر أنه يتحطم تحطمًا يُعبِّر عن الانتحاب ويثير الاشفاق. واعترتها نوبة سعال قصيرة، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته...

لسوف تضحكون تهكمًا على اهتياجي. ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبد بي انفعال شديد! إن ما شعرت به لم يكن شفقة بعد. وإنما كان، في اللحظات الأولى على الأقل، حيرة مفاجئة، ودهشة رهيبة، دهشة رهيبة عجيبة، فيها ألم، وفيها ما يشبه أن يكون حِقدًا ورغبة في الإنتقام: « ماذا؟ أتغنى بحضوري؟ أنسيتَ إذن أنني هنا؟ ».

بقيتُ في مكاني جامدًا مضطربًا متحيرًا، ثم نهضت فجأةً، وخرجتّ كأنني ثبتُ إلى رشدي. والحق أنني لا أعرف لماذا قمتُ ولا ماذا أنوي أن أعمل. ومَّدت إليَّ لوكيريا معطفي.

قلت أسأل لوكيريا بغير إرادة:

ـ أهي تغني؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت إليَّ مرتبكةً. وكان من حقها فالواقع أنه ما كان لأحدٍ أن يفهم ما بي. وأردفتُ أسأل لوكيريا:

ـ أهي تغني أول مرة؟

فأجابت لوكيريا بقولها:

ـ بل يتفق لها أن تغني أثناء غيابكِ عن البيت.

لا يزال الباقي كله مائلًا في ذاكرتي. نزلتُ السلم، وخرجت إلى الشارع لأمضي إلى أي مكان. سرتُ حتى زاوية الشارع، وسرَّحت طرفي. كان يمر ناس فيصدمونني، فلا أحس بشيء. وناديتُ حوذيًّا، وأردت أن يقودني إلى « جسر الشرطة » لا أدري لماذا. لكنني سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة، فنقدت الحوذي عشرين كوبكًا وأنا أقول له مبتسمًا إبتسامةً بلهاء:

- جزاء إزعاجك بغير فائدة.

ولكن قلبي ارتعش في تلك اللحظة بنوع من الحماسة.

رجعت إلى البيت وأنا أغذ الخُطى. إن النغمات الحزينة من الأغنية المحطمة قد ترجَّعت في نفسي على حين غرة. شعرت بأنفاسي تتقطع. الغشاوة سقطت أخيرًا عن عينيَّ، سقطت الغشاوة! ما دامت قد غنَّت بحضوري، فمعنى ذلك أنها نسيت، الأمر واضح بقدر ما هو مريع. أحس قلبي ذلك. ولكن الحماسة التي أشرقت في نفسي غلبت الروع. يا لسخرية القدر! هل كان في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك الحماسة، بل هلِ كان يمكِن أن يوجد

في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك الحماسة؟ فأين كنت أنا في ذلك الشتاء؟ هل كنت صعدت السلم مسرعًا، فلا أدري هل كان دخولي رزينًا. كل ما أتذكره هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدميَّ، وأنني كنتُ أحس بنفسي عائمًا في نهر. دخلتُ الغرفة. كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز مائلة برأسها على شغلها. ولكنها قد انقطعت عن الغناء. ألقت عليَّ نظرة سريعة خالية، نظرة ليست نظرة، وإنما هي تلك الحركة الآلية التي ليس فيها إكتراث، الحركة التي تجريها حين يدخل أحد الغرفة.
مضيتُ إليها قُدُمًا، وجلستُ بقربها على كرسي كالمجنون. تنظر إليَّ فجأةً مذعورة مرتاعة. تناولتُ يدها. ولا أتذكر الآن ماذا قلتُ لها، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها، لأنني لم أفلح في أن أرسل كلامي سليمًا صحيحًا. وانحبس صوتي، وعُقل لساني، فلم أعد أنطق بحرف. ثم إنني كنت لا أدري ما عساني أقول لها. كنت أختنق اختناقًا.
وفجأةً تمتمتُ أقول لها ببلاهة:
- هلا تكلمنا.. قليلًا.. قولي لي شيئًا..
نعم، بهذه البلاهة خاطبتها، ولكن هل كان يمكن أن أكون في تلك اللحظة ذكيًّا؟ فما إن نظرت إليَّ وجهًا لوجه حتى ارتعشت وترنحت من جديد، واعتراها هلع شديد. ولكن « اندهاشًا قاسيًّا » لم يلبث أن ارتسم على وجهها. نعم، كان ذلك اندهاشًا، وكان قاسيًّا. نظرت إليَّ وقد اتسعت حدقتاها. فسرعان ما صعقتني تلك القسوة، سرعان ما صعقني ذلك الإندهاش القاسي. كان ذلك الإندهاش كأنه يسألني رغم صمتها: « أما زلت إذنْ تطلب حبًّا؟! »، قرأت ذلك في وجهها رغم أنها لم تقل شيئًا. فإذا كل شيء في نفسي يهتز، وإذا أنا أهوى على قدميها. نعم، تهالكت على قدميها. فنهضت بوثبة واحدة، ولكنني بقوة خارقة أمسكتها من ذراعيها.
ذلك أنني كنت أدرك ما أنا فيه من كرب ويأس إدراكًا كاملًا. آه... نعم، كنت أدركه! ومع ذلك ـ هل تصدقون؟ ـ كانت الحماسة تغلي في قلبي غليانًا يبلغ من القوة والصرامة التي لا سبيل إلى قمعها أنني إعتقدتُ بأن حيني قد حان، وأني أموت. طفقت ألثم قدميها سكرًا ونشوة وسعادة. نعم، سعادة طافحة، لا نهاية لها، على علمي بأنني صرت إلى يأس لا مخرج منه. وكنت أبكي، وأتكلم دون أن أجد إلى الكلام سبيلًا. فإذا بالإرتياع والدهشة يحل محَّلهما عندها قلق وتساؤل، فتنظر إليَّ وقد لاح في وجهها استغراب، وحتى توحش. كانت تريد أن تفهم شيئًا بأقصى سرعة، وكانت تبتسم. ولقد أشعرها بخزي رهيب أن رأتني أقبل قدميها، فسحبتهما، ولكنني قلتُ عندئذ الموضع الذي كانت فيه قدماها من الأرض. فلما رأت هذا ضحكت شعورًا منها بالخجل والخزي (هل رأيتم أحـدًا يضحك شعورًا منه بالخجـل والخزي؟). وأوشكت أن تعتريها نوبة عصبية. رأيت ذلك. كانت يداها ترتجفان. ولم أحترس، فظللت أتمتم قائلًا أنني أحِبها، وأنني لن أكف عن حبها؛ وأضفت أقول: « دعيني أقبل

ثوبك... هكذا... سأقضي حياتي كلها مصليًّا لكِ، ضارعًا إليكِ... » نسيت الآن ما قلته لها أيضًا. وإني لكذلك، إذا هي تنفجر ناشجةً منتحبةً، وتأخذ ترتعش. هذه نوبة عصبية تعتريها. لقد روَّعتها.
نقلتُها إلى السرير. فلما انتهت النوبة، جلست على سريرها وقد بان في وجهها إرهاق شديد واعياء قوي، وأمسكت يدى، وأخذت تتوسل إليَّ أن أهدأ، وتقول لي: « لا تعذِّب نفسك، هدىء بالك »، ثم استأنفت بكاءها. لم أتركها طوال المساء. وظللت أقول لها أني سآخذها الى بولوني لتستحم في مياه البحر، وأني سأفعل هذا الآن، على الفور، بعد خمسة عشر يومًا؛ وأني قد سمعت في صوتها بالأمس من النحول والتكسر والتحطم ما يجعلني أقـرر أن أغلق المكتب، وأبيعه إلى دوبرونرافوف؛ وأننا سنبدأ كل شيء بدءًا جديدًا، وأننا سنسافر خاصةً إلى بولوني، إلى بولوني! فكانت تصغي إلى كلامي ولا تكف عن الإرتياع، وكان الجزع يجتاحها أكثر فأكثر. على أن أهمَّ شيء في نظري لم يكن هو هذا، وإنما كانت تستبد بي من جديد رغبة عارمة قوية ما تنفك تشتد وتعنف فلا سبيل إلى مقاومتها ومغالبتها، وهي أن أرتمي على قدمي زوجتي مرةً أخرى، وأن آخذ بتقبيلهما من جديد، وأن ألثم الأرض التي وطئتها بأقدامِها، وأن أرجوها مرددًا في كل لحظة « لا ألتمس منكِ إلا شيئًا واحــدًا.. لا تحبيني، لا تلقي بالًا إليَّ، لا تكترثي بي.. ولكن دعي لي أن أنظر إليكِ من الركن الذي أقبع فيه، اجعليني متاعًا لكِ، عدِّيني شيئًا من أشيائك، احسبيني كلبك الصغير! » وكانت تبكي. وأفلت منها قولها بغير أن تريد ذلك:
ـ « كنت أقدر أن تتركني على هذه الحال... ».
قالت ذلك على غير إرادة منها، ولعلها لم تسمع ما قالته. ولكن هذا الذي قالته كان أخطر كلامها شأنًا، وأشده شؤمًا، وأكثره استغلاقًا على الفهم طوال السهرة، وكان أشبه بطعنة نفذت في قلبي حين سمعته! لقد أوضحت لي تلك الجملة كل شيء، ولكنني أثناء وجودها بقربي أمام عينيَّ، لم يكن في وسعي أن أفقد الأمل، حتى لقد كنت أستنشق عبير سعادة لا حدود لها. آه... كنت في ذلك المساء أرهقها تعبًا، وكنت أدرك ذلك، ولكنني لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور! وحين هبط الليل أخيرًا، خارت قواها وانهارت انهيارًا. فأقنعتها بأن تنام، فسرعان ما نامت نومًا عميقًا. وكنت أتوقع أن تهذي، فهذت فعلًا، ولكن هذيانها كان خفيفًا. ولبثتُ الليل كله أقوم في كل لحظة، فأقترب منها ببابوجين دون أية ضجة، لأنظر إليها، وأتأمل وجهها. فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض، الراقد على ذلك المضجع هناك، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذي اشتريته لها بثلاثة روبلات، لا يسعني إلا أن أعقف يديَّ أسفًا وحسرة. وكنت أجثو على ركبتي، دون أن أجرؤ مع ذلك على أن أقبل قدمي النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف إرادتها ويسوؤها). وكنت أحاول أن أصليِّ للّه، ولكنني لا ألبث أن أنهض بوثبة. وكانت لوكيريا تنظر إليَّ،

ولا تنفك تخرج من المطبخ. فمضيت إليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام، وقلت لها أن « كل شيء سيُتدارك في الغد وسيتغير ».
وذلك ما كنت أومن بها إيمانًا أعمى، إيمانًا مجنونًا. آه... كانت الحماسة تغمر قلبي، تُغرق قلبي! كنت لا أنتظر إلا أن يجيء الغد. والأنكى من ذلك أنني كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصيبة، لأنني كنت لا أرى شيئًا ينذر بذلك. لم أكن قد استرددت رشدي كاملًا، رغم أن الغشاوة تمزقت. ومضى وقت طويل قبل أن أسترد رشدي كاملًا، وقت طويل إمتد إلى هذا اليوم، بل إنني حتى في هذا اليوم لم أصحُ صحوًا تامًا. وأين لي أن أصحو صحوًا تامًا في ذلك الحين؟ ألم تكن لا تزال حية، هي أمامي وأنا أمامها؟ « غدًا تستيقظ، فأحكي لها كل شيء، وتكتشف كل شيء ». تلكم كانت خواطري في ذلك الوقت، واضحة كل الوضوح، بسيطة أشد البساطة، ومن ثمَّ كانت تنبع حماستي الغامرة الفياضة، وكانت فكرة السفر الى بولوني خاصةً تؤجج تلك الحماسة تأججًا شديدًا، إذ كنت أتصور - لا أدري لماذا - أن بولوني كل شيء، وأن في بولوني مستقرًا لكل شيء. « إلى بولوني، إلى بولوني!... ».
وعلى هذه الحال من الخرف والهذيان، إنما كنت أنتظر طلوع الفجر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3

فهمت كل الفهم

ما رأيكم في أن هذا إنما وقع منذ بضعة أيام فحسب، منذ خمسة أيام ليس غير، في يوم الثلاثاء الماضي؟ نعم نعم، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل، لو أنها تريثت قليلًا، لو أنها تمهلت شيئًا من التمهل، إذن لاستطعت أن أبدِّد جميع الظلمات. ألم تكن قد هدأت؟ بلى. لقد أصبحت منذ الغد تصغي إليَّ مبتسمةً رغم حيرتها وارتباكها. إن ما كنتُ ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت، طوال تلك الأيام الخمسة، إنما هو الحيرة والارتباك خاصـة، أو هو الخجل والحياء. وكانت خائفة أيضًا، كانت خائفة خوفًا كبيرًا. لا أُنكر هذا. لستُ مجنونًا فأزعم النقيض. كان ذلك خوفًا. ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف؟ كنا قد عشـنا غريبين أحدنا عن الآخر، بعيدين أحـدنا عن الآخر، مدة طويلة، وحدث كل ما حدث مباغتًا أشد المباغتة... ولكنني لم أكترث بمخاوفها: إن فجرًا جديدًا يطلع! والحق أنني ارتكبت خطأً فاحشًا. ذلك حق لا يمكن أن أُماري فيه. لقد ارتكبت خطأً منذ استيقظنا في الغد، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء): أسرعت أُعاملها كما تُعامل صديقة. تعجلت. أسرفت في التعجل. ولكن كان لا بد لي من أن أعترف لها، كان لا غنى لي عن هذا الإعتراف. لا أقلَّ من الإعتراف! وهكذا بحت لها بما أخفيته حتى عن نفسي، بما أخفيته عن نفسي طول حياتي. قلتُ لها فجأة أنني خلال هذا الشتاء كله كنتُ واثقا بحبها؟ وكشفت لها عن أن مكتب الإقراض هذا ليس لوجوده من سبب إلا ضعف إرادتي وقلة ذكائي، وأنه أسلوب ابتكرته لمعاقبة نفسي والمباهاة بها في الوقت نفسه. وذكرت لها أن ما وصفتُ به من جبن لم يكن تجنيًّا عليّ بل كان حقًّا، إذ لقد جبنت فعلًا في بوفيه المسرح، لأنني رجل خائر العزيمة سيىء الظن شديد المحاذرة؛ وكان الجو الذي يحيط بي، والبوفيـه، وكل ذلك، قد ملأني دهشـةً. ثم هذا الأمر أيضًا: كيف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيفًا مضحكًا؟ إن خوفي لم يكن من المبارزة، بل من أن أظهر للملأ سخيفًا مضحكًا. ثم إنني لم أشأ أن أوافق على المبارزة، فأخذت أعذب جميع الناس، فعذبتها هي أيضًا بسبب ذلك، وتزوجتها بعدئذٍ من أجـل أن أعذِّبها. الخلاصة أن أكثر كلامي لها كان كالهذيان. فأمسكت يدي، وضرعت إليَّ أن أسكت، قائلةً: « إنك تبالغ، إنك تعذب نفسك ». وطفقت تبكي من جديد، وأوشكت أن تعتريهـا نوبة عصبية أخرى! وكانت لا تنفك ترجوني أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات.

ولكنني أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها، وظللت أُحدثها عن الربيع وبولوني قائلًا: هناك ستشرق الشمس... هناك ستتلألأ شمسنا الجديدة. وكنت لا أقول لها شيئًا غير هذا! وأغلقت المكتب، وعهدت بالعمل إلى دوبرنرافوف.

واقترحت عليها فجأةً أن نوزِّع كل شيء على الفقراء، إلا الثلاثة آلاف روبل التي ورثتها من عرَّابتي، فبهذا المبلغ نسافر إلى بولوني، ثم نرجع من بولوني لنبدأ حياة عمل جديدة. على هذا اتفقنا، لأنها لم تعترض بشيء، لم تقل شيئًا، واكتفت بالتبسم. وأظن أنها كانت تتبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلمني. وكنت أرى رؤية واضحة أنني أتعبها. لا تظنوا أنني بلغت من الأنانية والحماقة حدًّا يجعلني لا ألاحظ ذلك. لقد رأيت هذا كله، رأيتـه بأدق التفاصيل. كنت أرى وأعلم أكثر من أي إنسان في العالم. وكان يأسي كله ماثلًا ً أمامي تحت بصري.
طفقت لا أُحدثها إلا عنها وعني. وعن لوكيريا. قلت لها أنني بكيت. وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه. حرصت على أن لا أثير ذكرى بعض الأمور، حتى أن هيئتها قد انتعشت مرةً أو مرتين. أذكر هذا، أذكر هذا! ما بالكم تزعمون أنني كنت أنظر فلا أرى شيئًا؟ ولو أن « ذلك » على الأقل لم يحدث، لكان هذا انبعاثًا. ألم تقصص عليَّ في غداة الغد، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته أثناء هذا الشتاء، ألم تقصص عليَّ، وهي تضحك لهذه الذكرى، مشهد « جيل بلاس » مع رئيس أساقفة غرناطة؟ وما كان أروع ضحكها! كان كضحك طفلة صغيرة، ذكرني بضحكها أيام الخطوبة (مدة لحظة، لحظة واحـدة). آه ما كان أسعدني! ومع ذلك لم تدهشني قصتها عن رئيس الأساقفة. وقلت لنفسي: معنى هذا أنها إستطاعت في خلال هذا الشتاء أن تسترد كثيرًا من هدوء البال والطمأنينة والسعادة، حتى أخذت تتسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب. معنى ذلك أنها أخذت تألف الوضع وتتلاءم مع الظرف، وأنها أخذت تؤمن حتمًا بأنني سوف أتركها « على تلك الحال ». لقد قالت لي في يوم الثلاثاء ذاك: « كنت أظن أنك ستتركني على هذه الحال ». تلك فكرة تراود خاطر صبية صغيرة في العاشرة من العمر! كانت تعتقد فعلًا - كانت تعتقد بذلك - بأن كل شيء سيبقى على تلك الحال... أجلس أنا إلى مائدتي، وتجلس هي إلى مائدتها، ونبقى على هذه الحال إلى سن الستين. ثم ها أنا ذا أتدخل تدخل زوج. والزوج يطلب أن تحبه زوجته. فذلكم كان سوء فهمي. وتلكم كانت عماوتي!...
وكان خطأ آخر هو أنني كنت أتأملها في حماسة. كان ينبغي لي أن أكبح زمام نفسي، لأن حماستي أخافتها. ولكن ألم أكبح زمام نفسي حين كنت أمتنع عن لثم قدميها؟ وما من مرة هممت... هيَّا... قلها... نعم... ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج. حتى أن ذلك لم يخطر لي على بال؛ وكانت شفتاي لا تتحركان إلا بالضراعة والرجاء.
على أنني ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتًا تامًا فما أنطق بكلمة! لذلك رأيتني أعترف لها فجأة بكل المسرة التي أجنيها من حديثها، وأعبر عن مدى ما أكنه من إحترام لها وأصفها بأنها تفوقني أدبًا وثقافة فلا وجه للمقارنة بيني وبينها في مضمار الأدبِ والثقافة. فاصطبغ وجهها بحمرة شديدة، وخجلتِ

خجلًا قويًّا، وقالت إني أبالغ. وفقدتُ عندئذٍ سيطرتي على نفسي، فإذا أنا أرتكب حماقة كبرى، فأصف لها ما شعرتُ به من سورات الحماسة حين كنت واقفًا وراء الباب أتنصَّت على الهجوم الذي شنَّه طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك، وأصف لها ما ذقته من لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة، وأشهد براءتها الساذجة فإذا هي يسري في جسمها كله ما يشبه أن يكون رعدة، وإذا هي تهم أن تقول أنني أبالغ، ولكن وجهها لم يلبث أن إكفهر وأربد، ثم أسرعت تدفن رأسها في يديها وتنفجر باكيةً... فلم أستطع عندئذٍ أن أكبح جماح نفسي، فإذا أنا أركع من جديد، وأهوى على قدميها ألثمهما، وإذا بهذا كله ينتهي بنوبة عصبية أخرى تعتريها كما اعترتها نوبة عصبية في المرة الأولى. حدث ذلك في العشية، حتى إذا طلع الصباح...

الصباح؟ يا لي من مجنون!... إن ذلك الصباح هو هذا اليوم، هو اليوم الذي نحن فيه، هو منذ برهة، منذ برهة...

إصغوا إليَّ، وتابعوا ما أقوله. منذ مدة وجيزة، حين افترقنا عقب تناول الشاي (حدث هذا بعد النوبة العصبية التي اعترتهـا أمس)، أدهشني ما رأيته فيها من هدوء.. تلكم كانت حالنا. وكنت من جهتي قد قضيتُ الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس. ولكنها اقتربت مني على حين فجأة، وضمت ذراعيها إحداهما إلى الأخرى ابتهالًا (منذ قليل، منذ قليل!) وأخذت تقول لي أنها مجرمة وأنها لا تجهل ذلك، وأن جريمتها قد عذبتها طوال الشتاء ولا تزال تعذبها إلى الآن وأنها تُقدر شهامتي ومروءتي قدرًا عظيمًا... وأضافت تقول: « لسوف أكون خليلتك الوفية، ولسوف أقدسك تقديسًا ». فما إن سمعت هذا الكلام حتى انتفضت، وهجمت أعانقها بذراعيَّ كالمجنون! وقبَّلتها، قبَّلت وجهها وشفتيها، تقبيلَ زوجٍ لزوجته، لأول مرة منذ انفصالنا الطويل.

لماذا خرجت بعد قليل لأغيب ً عن البيت ساعتين؟ خرجت لأنجز إجراءات جوازيْ سفرنا إلى الخارج. آه... يا رب! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر... إذنْ لكان يمكن ألا يحدث ما حدث! ولكن ها أنا ذا أرجع إلى البيت، فأرى أمام بابنا حشدًا كبيرًا من الناس، وأرى الأبصار كلها تشخص إليَّ... آه... رباه!

وتقول لي لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرف بحال مـن الأحوال. إنها تعرف كل شيء. بقيت عندنا الشتاء كله، فسوف تقص عليَّ ما تعرف)، تقول لي لوكيريا أنها، بعد خروجي من البيت بعشرين دقيقة في أكثر تقدير، دخلت على مولاتها في غرفتنا فجأةً لتسألها عن أمر من الأمور، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن في مكانها، وأن مولاتها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة، وأن مولاتها كان يبدو عليها أنها صلت للأيقونة في تلك اللحظة نفسها. قالت لي لوكيريا: سألتها: « ما بكِ يا سيدتي؟ »، فأجابتني: « لا شيء يا لوكيريا، اذهبي لشأنك، بل إنتظـري يا لوكيريا ». وتقدمت مني وقبلتني. سألتها: « هل أنتِ سعِيدة يا سيدتي؟ » فأجابتني: «

نعم يا لوكيريا ». قلت: « كان ينبغي لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة... الحمد للّه على أنكما تصالحتما ». قالت: « طيب يا لوكيريا، اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا ». وابتسمت مرةً أخرى، ولكن ابتسامتها كانت غريبة. كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لترى ماذا كانت تفعل. « كانت مكبةً على الحائط بقرب النافذة، قد أسندت إليه إحدى ذراعيها وأسندت إلى الذراع رأسها. وبقيت على هذه الحال مستغرقة في أفكارها، حتى لقد بلغت من شدة الإستغراق أنها لم تلاحظ أنني لبثت في الغرفة أنظر إليها. ورأيت في وجهها ما يشبه الإبتسام، ورأيتها تفكر ثم تبتسم. نظرتُ إليها مليًّا، ثم استدرتُ في رفق وهدوء، وخرجت واجمةً مفكرةً، فإذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأةً. فرجعت لأقول لها: « الهواء بارد يا سيدتي، فحذارِ أن يصيبك برد »، لكنني رأيتها ترتقي حافة النافذة المفتوحة، وتقف عليها منتصبة القامة، مديرةً ظهرها إليّ، محتضنةً الأيقونة بيديها. فهبط قلبي فزعًا وصرختُ: « سيدتي! سيدتي! »، فسمعت صوتي، وتحركت لتلتفت نحوي، ولكنها لم تلتفت، بل ترجحت، وشدت الأيقونة إلى قلبها ملقيةً بنفسها من النافذة! »..

أذكر أننى حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حـارًا. وأهول ما في الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون إليَّ. سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات، ثم صمت المحتشدون كافةً وتنحوا عن طريقي ليفسحوا لي ممرًا. كانت راقدة هناك، قابضةً على الأيقونة. أذكر، كما يذكر المرء رؤية في ظلمات، أنني تقدمت صامتًا، وتأملتها مليًّا. كان الجمهور قد ابتعد، وكان يُقال لي شيء ما. وكانت لوكيريا هناك، لكنني لم أبصرها. يُقال لي أنها كلمتني. إنني لا أتذكر إلا ذلك البائع الذي كان لا ينفك يصيح قائلًا لي: « خرج من فمها خيط نحيل من دم، خيط، خيط من دم! »، وكان يشير لي إلى الدم هناك على الحجر. وقد لمست الدم فطليت به أصبعي (أذكر هذا)، بينما كان البائع لا يزال يصيح « خيط نحيل من دم! ». فما كان مني إلا أن زأرت زئيرًا شديدًا في أغلب الظن، وشهرت قبضتي يدي، وهويت عليه...

آه... يا للحادث القاسي، الأليم! سوء فهم! غلطة! شيء لا يُعقل حدوثه! شيء مستحيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4

بسبب خمس دقائق من التأخر

أأكون واهمًا؟ هل هذا كله يُعقل حدوثه؟ هل يمكن أن يقول أحد أن مثل هذا الأمر ممكن؟ لماذا ماتت هذه المرأة؟

صدقوا أنني أفهم الأمر. ولكن سبب موتها ... يظل سؤالًا قائمًا. لقد خافت من حبي. تساءلت جادةً: « أيجب أن أقبله أم لا؟ ». فلما لم تطق إحتمال هذا السؤال، آثرت أن تموت. أنا أعرف ذلك، أعرفه، فلا حاجة إلى أن أصدِّع رأسي. لقد تورطتْ في وعود مسرفة، وخشيت ألا تستطيع الوفاء بها... الأمر واضح. تضافرت ظروف رهيبة. هذا كل شيء.

ذلك أننى أتساءل حقًّا لماذا ماتت؟ لا يملك المرء إلا أن يعود إلى هذا السؤال. والسؤال قائم تحت جمجمتها ينبض ويخفق. لقد كان يمكنني أن أدعها على « تلك الحال »، ما دامت هذه هي رغبتهـا. ولكنها لم تصدقني. وتلك هي حقيقة الأمر كله. لا، لا، إنني أكذب: ما هذه هي حقيقة الأمر. بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها في المستقبل أن تحبني حبًّا صادقًا، حبًّا كاملًا ً تامًا، لا كالحب الذي كانت ستهبه للبقال. ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضي هذا النوع من العاطفة التي تلائم بقالًا، قد رفضت أن تغشني وتخدعني. لم تشـأ أن تغشني وتخدعني بأن تهب لي نصف حب أو ربع حب في حلة حب كامل. كانت شريفة مسرفة في الشرف، وكانت مستقيمة مغالية في الإستقامة. ذلك هو الأمر كله! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر، هل تتذكرون؟ فكرة غريبة عجيبة!

وهناك نقطة يهمني كثيرًا أن تتضح لي: تُرى هل كانت تعتبرني؟ لا أدرى أكانت تحتقرني أم لا. ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحتقرني. شيء غريب! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحتقرني؟ لقد بقيتُ إلى آخر لحظة، إلى اللحظة التي نظرت إليَّ فيها « بدهشة قاسية »، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك. وحينذاك إنما أدركت فجأةً أنها تحتقرني. فهمت ذلك مرةً إلى الأبد. آه! أي ضير، أي ضير في أن تظل تحتقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية، أن تبقى حية؟ إنني لا أفهم أن تكون قد ألقت نفسها من النافذة! منذ قليل كانت تمشي، وكانت تتكلم! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالي ما عقدت نيتها عليه، ولو قبل خمس دقائق؟ لقد ناديت لوكيريا. لن أدع لوكيريا ترحل، لا، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال.

أواه! كان لا يزال في إمكاننا أن نتفاهم. صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيرًا تعود أحدنا على الآخر وألفته له، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة؟ إن نفسي نبيلة سامية - وكذلك نفسها - فكان

يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الإتصال والإلتقاء! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى، لو تريثت يومين آخرين، يومين لا أكثر، لكان يمكن أن نفهم كلَّ شيء.
أنكى ما في الأمر أن هذا كله ثمرة المصادفة، ثمرة مصادفة عمياء، قاسية، وحشية، غادرة. يا له من ظلم وجور! خمس دقائق، لا أكثر من ذلك، خمس دقائق من تأخر! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق، لانقضت اللحظة المشئومة كما ينقضي حلم، ولما خطر الأمر ببالها بعد ذلك في يوم من الأيام. كانت ستفهم في النهاية. وبدلًا من ذلك، ها هي ذي الغرف تقفر من جديد، وها أنا ذا أبقى وحيدًا مرة ثانية؟ هل تسمعون دقات الساعة؟ إن الساعة لا يهمها الأمر إنها لا تأسف لشيء ولا تتحسر على شيء. آه... ألا يكون للانسـان أحد في هذا العالم... يا له من حزن!
إنني أسير ذاهبًا آيبًا، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب. أعلم ما يدور في أذهانكم، أعلمه، فلا حاجة بكم إلى أن تقولوه: إنه يبدو لكم أمرًا سخيفًا مضحكًا أن تروني آسفًا لمصادفة هذه الدقائق الخمس؟ ولكن، أسفي شيء يدركه الإنسان بداهةً. تذكروا أنها لم تترك حتى ورقةً تعلن فيها أنه لا ينبغي إتهام أحد بأنه سبب موتها، كما يفعل ذلك جميع من ينتحرون. ألم يكن في وسعها أن تقدِّر أن من الممكن إقلاق لوكيريا وازعاجها، كأن يُقال لها: « كنت وحيدةً معها، فلا بد أنكِ أنتِ التي دفعتها ». على كل حال، كان يمكن إعتقال بريئة لو لا أن كان في فناء المنزل أربعة أشخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت واقفة على النافذة محتضنةً الأيقونة، وكيف ألقت نفسها بنفسها إلى تحت. وأنها لمصادفة على كل حال أن كان في الفناء أشخاص رأوها. لا، لا، إن ذلك كله هو ثمرة لحظة، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسئولية. نزوة مباغتة! لماذا كانت تصلِّي أمام الأيقونة؟ ليس معنى هذا أنها كانت تنوي الموت. لعل المدة التي قضتها مكبـةً على الحائط، مُسندةً رأسها إلى يديها، مبتسمةً، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقة، فإذا هي تتخذ قرارها. إنها فكرة برقت في رأسها، فاعتراها دوار، ولم تستطع أن تقاوم نداء الإنتحار.
هو سوء فهم لا أكثر. كان لا يزال في وسعها أن تعيش معي. ولكن ماذا إذا كانت مصابة بفقر الدم؟ ماذا إذا كان مردُّ الأمر إلى الأنيميا وحدها، إلى نضوب قوة الحياة ليس غير؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها، فإذا هي...
لقد تأخرتُ!!!
ما أشد ما يبدو جسمها ناحلًا في التابوت! ما أشد ما يبدو أنفها رفيقًا! وإن أهدابها تبدو أشبه بسهام. حين سقطت على الأرض لم تصب بجرح ولا كسر! لم يظهر إلا ذلك « الخيط النحيل من الدم ». إن الدم الذي نزف منها يملأ ملعقة قهوة في أكثر تقدير. كانت الأصابة داخلية. فكرة غريبة تخطر ببالي: لو أمكن ألا تدفن؟ ذلك أنها إذا أخذت مني.. فسوف.. لا، لا.. إنه يستحيل تقريبًا أن تؤخذ مني. آه.. إنني أعلم حق العلم مع ذلك أنها لا بد أن تؤخذ. ما أنا

بمجنون، ولست أهذي. بالعكس: ما كان فكري في يوم من الأيام صاحيًّا كصحوه الآن. ولكن ما معنى أن البيت عاد مُقفرًا ليس فيه أحد، ما معنى أنه لم يبقَ إلا غرفتان، وأنني قد عدت وحيدًا مع الأشياء المرهونة؟ كابوس! كابوس! هذا هو الكابوس!

ما قيمة قوانينكم عندي بعد الآن؟ بل في أي شيء تنفعني عاداتكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم ودينكم؟ ما قيمة أن تحكم عليَّ محاكمكم؟ ألا فلأجرَّ للمثول أمام القضاة، ولأستجوب فأقول إنني لا أقر شيئًا من ذلك كله، ولسوف يزأر القاضي عندئذٍ قائلًا لي: « اسكت، أيها الضابط »، فأصرخ أنا قائلًا له: « من أين لك هذه السلطة التي تجبرني على طاعتك؟ لماذا قتلت مصادفة عمياء أعزَّ إنسان على قلبي؟ ما فائدة قوانينكم كلها. إنني أنسحب ». نعم، لا يهمني. سأعتزل.

عماوة! عماوة! إنها ميتة. إنها لا تسمع! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك؟ كانت الجنة في قلبي، وكان يمكن أن أنقلها إليك فتحف بكِ. ولكن كان يمكن ألا تجيبني؟ فلنفرض هذا. كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال ». ولكن كنت ستحكين لي، كما يحكي صديق لصديقه، شئونك الصغيرة، وكنا سنبتهج، وكنا سنبتسم بينما ينظر كلٌّ منا في عيني صاحبه فرِحًا مرِحًا. هكذا كان يمكن أن نعيش. وإذا أحببتِ رجلًا آخر، ما كنت سأهتم أو أكترث. كنتِ ستذهبين معه، وكنت ستبتسمين، وكنت أنا سأحوِّل بصري إلى جهة أخرى من الشارع... آه... ما قيمة هذا كله، بشرط أن تفتح عينيها من جديد مرةً واحدة! لحظة واحدة، لحظة وحيدة! وتنظر إليَّ، كما كانت تنظر إليَّ منذ قليل واقفةً تحلف لتكوننَّ لي خليلة وفية. آه... إن فعلت أدركتُ كل شيء بنظرة واحدة!

يا للقدر! يا للطبيعة! إن المرء وحيد على هذه الأرض. ذلكم هو الشقاء. إن المجذوم الروسي الذي تحدثت عنه الأسطورة يهتف سائلًا: « هل هنا أحد حي؟ ». وإني لأهتف أنا أيضًا، أنا الذي لست مجذومًا، فلا يجيبني أحد. يُقال أن الشمس تحيي الطبيعة. إن الشمس تطلع، أنظروا إليها أليست كأنها ميتة؟ كل شيء ميت. ليس في كل مكان إلا أموات. الإنسان وحيد. كل ما حوله صمت. تلكمُ هي الأرض! « أيها البشر، أحبوا بعضكم بعضًا ». من الذي نطق بهذه الكلمات؟ من أين يأتي هذا النداء؟ من حمل هذه الرسالة؟

ساعة الحائط تدق بغير إحساس، دقًّا رتيبًا مُنفِّرًا. هي الساعة الثانية من الفجر. حذاءاها الصغيران تحت السرير، كأنهما ينتظران. أواه! ما عساني أصير حين يأخذونها غدًا. قولوا: ما عساني أصير!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات..

Notes

[←1]

(1) بمعنى: ما بين المتوسطة والطويلة.